مطارحات

في المعرفة الإيمانية عند النورسي

تأليف

أديب ابراهيم الدباغ

مركز الحضارة للنشر

مطارحات

في المعرفة الإيمانية عند النورسي

تأليف
أديب ابراهيم الدباغ

مركز الكتاب للنشر

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

مصر الجديدة : ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة

ت: ٢٩٠٨٢٠٣-٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس : ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر: ٧١شارع ابن النفيس-المنطقة السادسة- ت:٢٧٢٣٣٩٨

الرحلة والصحبة

في البدء لم اكن احسب اني سامضي مع «النورسي»، فيما كتب، هذا الشوط البعيد، او سأوغل في شعاب فكره هذا الايغال اللاهف العميق، فقد توهمت – بادئ ذي بدء – ان رحلتي معه لن تطول، وصحبتي له لن تستمر، ولكن الذي حدث هو ان الرحلة التي بدأت قبل اكثر من عشر سنوات لا يبدو انها على وشك الانتهاء والصحبة التي استمرت طوال هذه السنين لم يظهر – حتى هذا اليوم – ما يشير الى انها قد وصلت النقطة النهاية، فما زلت اقف امام صفحات كثيرة مطوية من فكر الرجل تنتظر من يكشف عنها، ويسلط الاضواء عليها، فضلا عما تحدثه – في النفس – صحبة الرجل، وملازمة مؤلفاته، من احساسٍ بالراحة، وشعور بالقوة والحيوية والتفوق إزاء شتى ضروب الافكار والمعتقدات الاخرى.

والرجل – بعد هذا او ذاك – موهوب في كسب صداقة من يقرأه، وامتلاك، اعجابه واجتذابه اليه، بما وهبه الله سبحانه وتعالى من قوة الروح، ونفاذ الفكر، ورهافة الحس، وصفاء الذوق، وصدق المشاعر، وعمق محبته للانسان، وعظيم اخلاصه لله، وشدة تعلقه بكتاب اللهِ وسنة رسوله ﷺ، ولذلك فان صحبته لا تمل، وملازمته لا تسئم، ومعايشته لا تضجر.

وقد كانت بداية تعرفى على «النورسى» من خلال قراءتي لبعض اعماله المترجمة من التركية، والتي اضطلع بمهمة نقلها الى العربية الاخ

الاستاذ احسان قاسم الصالحى، كما وقع في يدي بعض مؤلفاته بالعربية كـ«المثنوى العربى النوري» و«اشارات الاعجاز في مظان الايجاز» فاكتشفت من خلال هذه القراءات اننى وقعت على كنز ايمانى نفيس، ليس من العدل حرمان قراء العربية من الوقوف عليه، والتعرف على ما عنده، والافادة مما لديه، لاسيما والرجل وقَّاع على الجديد والطريف والمبتكر من المعاني والافكار، وقناص بارع لكل سارح وبارح من بوارق الخواطر ولوامع العقول.

و«سهوله العمق» او «عمق السهولة» ميزة مؤلفات «النورسى».

اما «سهولة العمق»؛ فنعني بها: انه لا يأخذك الى عمق افكاره ما لم يمهد لك السبيل الى ذلك، وييسر لك طريق الاندفاع اليها، والغوص في طلبها، فلا تحس في غوصك بضغوط الأعماق، ولا تعاني من ضيق التنفس، ثم تنفذ – بعد ذلك – الى السطح وقد التقطت طِلْبَتَكَ، وحصلت على بغيتك، وكأنك في مكانك من السطح لم ترم.

وأما «عمق السهولة»؛ فنعني به: انه ما من سهل في فكر «النورسى» الا وهو من ذلك «السهل الممتنع» الذى تحس وكأن كل احد قادر على الاتيان بمثله، لكنه في حقيقة الامر، يستعصى على الفحول من ارباب العقول، لان التجربة والمعاناة – وهى ذاتية بحتة – هى الاساس فيه، وهي مما لا يتشابه فيها إثنان من البشر.

فالتجربة والمعاناة هى التي ترفد رسائله بالحرارة، وتفعمها بالحيوية، وتطبعها بالمصداقية، وتشحنها بالواقعية. فقد عايش عصراً مضطرباً مليئاً بالاحداث، وشارك في بعضها، وراقب الاخرى عن كثب، وشاهد المسارات المرسومة للدولة العثمانية وكيف يتم تحويلها اليها تدريجاً.

فشارك في «الحرب التركية الروسية» قائداً لفرق الانصار وابلى البلاء الحسن، وهزّه انهيار الدولة العثمانية، ذات الامجاد العظيمة، ولاحظ بأسى الانقلاب المريع الذي قاده «مصطفي كمال» مزلزلاً به حياة تركية المسلمة، وأحس بالمؤامرات وهى تحاك في الظلام لإبعاد الاتراك عن دينهم وفصلهم عن قرآنهم، وبكى بمرارة على الحرف العربى الذي اختفى ليحل محله الحرف اللاتينى، وابصر دامعاً حزن «الجمعة المؤمنة» وهي تتوارى وجلة امام «الاحد» السفيه العابث.. الى غير ذلك من امور اصبح لها قوة القانون وهيمنة الدستور.

وقد شخص الرجل مرض المسلمين المزمن، ووضع يده على اسباب انحسار حضارة الاسلام امام الحضارة الغربية، ونادى بضرورة الانكباب على العلوم الحديثة والافادة منها في بناء «القوة الاسلامية الجديدة» والتى ينبغى لها ان تقبل التحدى وتواجهه بكل ما يتيسر لها من اسباب القوة، ونبّه الى ان اللبنة الاولى في صرح هذه القوة يجب ان يكون «الايمان».

لذا فان التركيز على «الايمان» وتجلية حقائقه، وتعميقه في النفوس، هو من مهمات الرسائل التى كتبها واطلق عليه اسم «رسائل النور».

وبعد:

يمكن اعتبار هذه المقدمة المتواضعة مدخلاً يدلف منه القارئ الكريم الى افكار «النورسي» الايمانية واعترف انني لم احصها او استقصها جميعا.. غير انني حصرت همي في الكلام على أهم المحاور الرئيسة التي تدور عليها هذه الافكار، او تنبثق منها، او تنتسب اليها، ولا ازعم كذلك اني قد استوفيت حق هذه الافكار من العرض او التوضيح، ولكني استطيع القول مطمئناً باني قد اشرتُ اشارات، وعلّمت علامات، تهدي القارئ الى

مناحي الفكر الإيماني عند «النورسي» وربما يسهل عليه بعد ذلك ان يوغل في عالمه على بصيرة ستزداد قوةً وحدةً ونفاذاً كلما مضى في القراءة حتى ينتهي من «كليات رسائل النور» وقد عرف «النورسي» كواحد من اعظم عمالقة الفكر الايماني في هذا العصر..

هذا.. ولله الحمد والمنّة الذي اعانني على هذا العمل راجياً قبوله خالصاً لوجهه الكريم..

آمين، والحمد لله ربّ العالمين..

اديب ابراهيم الدباغ

* * *

مدخل الى

عالم «النورسي» الفكري

(١)

ترك «النورسي» للأجيال من بعده إرثاً فكرياً متشعب الجوانب، وأنشأ عالماً تتلاطم فيه الأفكار والأحاسيس والمشاعر، في وحدة معرفية متشابكة الجذور، وتوحُّدٍ ذاتي لا يعرف الانقسام بين نوازع الذات المختلفة.

فأفكاره وأحاسيسه ومشاعره يموج بعضها ببعض، ويندرج بعضها ببعض، ويَشُدُّ بعضها أزْرَ بعض.

ولأنَّه قد أُوتي نفساً تواقةً الى حقائق الحياة والوجود. ومُنِح عقلاً طموحاً، فقد عزف عن الخوض في الضحضاح من المفاهيم والأفكار الإيمانية التقليدية الجاهزة. ودفعه شغفه بالحقيقة الى الكشف عنها بنفسه، فانكبّ على القرآن يتأمل في أسراره، ويوغل في هذا التأمل بتفتح عقل، وصفاء وجدان، ورهافة حسّ، فدرب عقله على طريقة القرآن ومنهجه في عرض حقائقه، وخبرَ أسلوبه في ضرب الأمثال بالملموس على المعقول، وبالمشهود على المغيب، وبالمرئي علىٰ غير المرئي، فرصد بهذا المنهج ذلك التداخل الخفي الذي يشير اليه القرآن بين الوجود المتناهي المحيط

بالانسان،والوجود غير المتناهي الذي بشرت به الأديان. ودعا الى تفتح الوعي الانساني على أبعاد الوجودين معاً، لأنّ هذا الوعي قمينٌ بإشعال ضوء البصيرة في الانسان، وحقيقٌ أنْ يضعه في موضع الاختيار الحُرّ بين خطر التناهي والتلاشي والعدم، وبين السعي للحصول على موضع قدم في عالمِ اللاّتناهي والبقاء الأبدي.

فبالتوق الملتهب في نفسه الى الوجود المشفق من العدم، وبالشوق المضئ في ذرّات دمه الى حياة الأبد، وبالروح الجائع الى قوت الخلود والبقاء، أنشأ «النورسي» عالمَ فكره، وأقام صروح روحه، وفتح المنافذ والأبواب لكل التواقين أمثاله ليدلفوا الى عالمه الغريب، ويلمسوا عن كثب جلال الفكر اللهيف، وجمال الشعور الملتهب، وأسىٰ الروح العطش الذي لا تخمد ناره مادام له قلب يخفق، ووجدان ينبض.

فالتوق هو مفتاح هذا العالم لمنْ يريد الدخول فيه، والإفادة منه، والاقتباس من سرّ تماسكه وقوته، وأما أولئك الذين يطرقون أبوابه بنفوس جاسية، وقلوب ميتة، وعقول منطفئة. فلن تُفتّحَ لهم الأبواب لأنهم ليسوا من أهله، ولأنهم لا يحتملون لهب التوق المندفع كالشلاّل من روحه رافعاً معه مَن يلتقيه الى حيث الآفاق الإيمانية العالية ومظانّها في خفايا النفس والحياة والوجود.

فلو شئنا أنْ نطلق عليه إسماً يدّلُ عليه، ونُعْطيَهُ عنواناً لا يخطئه لأسميناه دون تردد «عالَمَ التوق والتواقين» الذين يرون في هذا التوق المعنى الذي يزيد وجودهم الإيماني امتداداً، ويمنحه أبعاده العقلية والحسّية والشعورية الجديرة بأن تكون موضع خطاب القرآن من الانسان.

(٢)

وهذا التوق الذي تفيض به كتاباته قد فجره في قلمه زلزال عقلي مرعب تعرض له في صباه، فهزّ عقله، وشحذ فكره، وشدّ أوتار حسّه، وأرهف حدّة بصره وبصيرته وألهب روحه ووجدانه، فغدا إنساناً محترقاً بتوقه، همه الملحّ الكشف عن عالم الخلود والعثور على الاسباب التي تؤهل اليه، وتوصل به.

وقد بلغ هذا التوق عنده أعظم و تائره إثر هذه التجربة الفريدة التي ذكرنا تعرضه لها في صباه.

ففي بيت متواضع في قرية «نورس» الأناضولية مسقط رأسه، وفي ليالي الشتاء الطويلة كان يجلس منزوياً في غرفة الضيوف يتسمع بجد واهتمام الى أحاديث الكبار من شيوخ القرية وهم يديرون حواراً بينهم وبين والده الزاهد الصوفي في قضايا الموت والحياة، والوجود والعدم، والبقاء والفناء، فيرتعش منه الروح، ويتفطّر منه القلب، ويتجسم أمام ناظريه شبحا البلى والفناء وكأنهما يدّبان نحوه، ويشرعان بامتصاص وجوده، وبالتهام حياته ثم يدفعان به شيئاً فشيئاً نحو هاوية العدم المخيف.

فينتفض بكل نزوعه الفطري الى البقاء والخلود، وخوفه من الفناء والعدم، وغدا هذا النزوع هاجسه الملحّ، وشغل فكره الشاغل، الى الحد الذي جعله يشعر بأنه ملزم أمام نفسه وأمام الحقيقة بالبرهنة على وجود عالم البقاء . وبالانتهاء في هذه القضية الى الحق المبين الملزم للانسان بالاطمئنان والتسليم.

وبهذا وحده يبدد خوفه وخوف الخائفين، ويذيب وجله ووجل المشفقين الذين يرون في صيرورتهم الى العدم في خاتمة المطاف عبثاً يتعالى

الخالق الحكيم أن يقبل به، بل هو منزه عنه، لان خلق الانسان، وإلباسهُ لباس الوجود كرم آلهي، وعطاء رحماني لا يمكن عقلاً وحدساً ان يسترد الكريم هباته، او يسترجع عطاياه.

فطالما اعطانا الوجود – جلّ شأنه – فلن يسلبه منا، لكنه يمكن أن يجمّد فاعلية الحياة فينا موقتاً عند انتهاء آجالنا والى حين إنتقالنا الى الآخرة عالم الحياة الذي لا موت معه، وعالم الوجود الذي لا عدم معه.

(٣)

فوجود الانسان هو نقطة المركز من دائرة عالمَ «النورسي» الفكري، وعقله موضع نقاشه وقلبه وروحه متلمّس بصيرته وإنه لا ينى يشعل في الانسان نوراً إيمانياً يبصر به مواقع الزلل والخطأ في الفكر والسلوك. ويضع يده على مفاتيح الحق والعدل والجمال في النفس والحياة، ويزيح الاستار عن طهر الحياة وقداستها، ويبرهن له أنها أصل الخلق والوجود، بينما الموت خلق عارض ليس له قوة إلغاء الحياة أو إيقاف مدّها الزخّار الى بحر الأبدية والخلود.

لقد سبر «النورسي» غور الانسان بمسبار القرآن، وجال في آفاق نفسه، وأوغل في مجاهيل ذاته، وعاد من رحلته الاستكشافية هذه ليقرر أنّ «الانسان» حجة القرآن علىٰ الانسان نفسه، وأنه العالم الاصغر الذي ينطوي على ما ينطوي عليه العالم الأكبر من المناقضات والاضداد؛ ففي وجوده عدم وفي عدمه وجود، وفي حياته موت وفي موته حياة، وفي شهوده غيب، وفي غيبه شهود، وبكلمة جامعة يتجاور فيه سلبه وإيجابه، إلاّ أنه تُرك له الخيار، ومنح الارادة ليربط أسبابه بأسباب أيٍّ من السلب او الايجاب.

ويرى «النورسي» أنّ ما أُودع في الانسان من غيوب إنما هي رموز ترمز و تومئ الى غيوب ماوراء هذا العالم، و تؤكد حقيقة وجودها، وأنّ ما نتخيله من حدود وسدود بين عالمي الغيب والشهادة إنما هو وهْمٌ من جملة أوهامنا الكثيرة، فالحقيقة أنهما متجاوران و متلامسان ومندرج أحدهما بالآخر، ومتفاعلان فيما بينهما في هدوء وخفاء غير منظور كما يحدث ذلك في الانسان نفسه.

فالانسان – في الحقيقة – غيب في هيكل شهودي، فروحه غيب، وضميره غيب، وذاكرته غيب، وخياله غيب، وحدسه غيب، وأحلامه غيب، و«أناه» غيب، فالكشف عن الصلة القوية بين غيوب الانسان وغيوب ماوراء هذا العالم يشكل جانباً مهماً من جوانب المعرفة الايمانية التي كرس لها «النورسي» صفحات كثيرة من رسائله.

فواحد من غيوب الانسان هو «أناه» المودع في عمق أعماقه، ففيه مفتاح العالم، وفيه العقل الذي يعقل به الوجود، والحسّ الذي يقتحم به عالم الممكنات.

فإنْ أدار هذا المفتاح في أقفال السموات والأرض انفتحت له، وكشفت عن أسرارها، وأشارت الىٰ موجدها، وعينت له موقعه من العالم، وحجمه الذري إزاء كبرياء الله وعظمته وجبروته .

ولكنّ «أنا» كثيراً ما ينسىٰ حجمه، ويغفل عن موقعه، فيتيه عُجْباً ويختال افتخاراً على السموات والارض والجبال بتحمله سرّ أمانة التكليف، وبمنحه الإرادة والقدرة على الاختيار والترجيح.

«فالنورسي» يحذر الانسان من السقوط في مهاوي «أنا» ويحثه على الارتقاء الى مرتبة «الانسان الصعب» الذي يستعصي على الابتلاع

والسقوط بين شدقيه عندما يملأه الغرور. ويتوهم أن ما يملكه من صفات إنما هي صفات ذاتية الوجود فيه، وليست اعتبارية ومنحة ربانية، فينقلب بتنكره وجحوده الى طاغوت مخيف يستعبد صاحبه، ويستعبد الآخرين من حوله، فيتضخم ويستغلظ ويتورم ويصرخ بلسان فرعون : ﴿ **أنا ربكم الاعلىٰ** ﴾(النازعات: ٤٤) وبلسان النمرود: ﴿ **أنا أحيي وأميت** ﴾(البقرة: ٢٥٨).

ولهذا السبب كثيراً ما يتحرج الاتقياء الصالحون والاولياء المقرّبون من الاشارة الى أنفسهم بكلمة «أنا» تورعاً من أن يتحرك في أنفسهم – بتكرار هذه الكلمة – عرق «أناهم» في العجب والكبر الماحق لكل حسنات التقوىٰ والصلاح.

(٤)

وكما حذر «النورسي» الانسان من السقوط في مهاوي «أنا» داخل النفس، حذره كذلك من السقوط في سجن الكون خارج النفس.

وبالرغم من أنّ «الكون» يمثل لدىٰ «النورسي» الهيكل المرآتي الذي يعكس صوراً متتابعة ممّا ينطوي عليه من الحكمة والنظام والجمال والعلم والقدرة والإرادة والمعنىٰ والمغزىٰ المبطلة لكل أوهام العبثية والتصادفية في الخلق والإيجاد. الا أنه لا يسأم من تنبيه الانسان الى عدم الاستغراق فيه الىٰ الحد الذي يجد فيه نفسه وقد ابتلعه الكون، وحبسه في ضيق سجونه، لينسيه مكوّن الكون وخالق الكائنات كما هو الشأن عند البعض مِمّن استعبدتهم الطبيعة واسترقّتهم سننها و نواميسها.

«فالكونية» حين ننأى بها أن تكون سلّمنا للإرتقاء الىٰ المعرفة الإلهية تصبح – في نظر الإيمان مهما قدمت من معارف التقدم الحضاري –

هبوطاً معرفياً لا ينبغي للانسان الوقوف عندها والاستغراق فيها، أو اعتبارها خاتمة المعارف التي لا معرفة فوقها . فهذا الهبوط المعرفي هبوط من حرية «اللاّكونية» الى سجون «الكونية» ونزول بالمعرفة من الأعلى الى الأسفل، وانحدار في الفهم والادراك من «اللانهائي» الى «النهائي» وانتقال في الزمن من البقاء والخلود الى الزوال والعدم.

فسيدنا «ابراهيم عليه السلام» يضيق صدره بالكون كله، ويجهد للنفاذ من بين جدرانه، والخلاص من قيوده وكسر أغلاله، والارتفاع بمعرفه نحو «اللاكونية» فأعطىٰ للبشرية نموذج الانسان الذي يلهبه التوق الى المعرفة الإلهية التي هي أعلىٰ المعارف بمقولته الخالدة التي نطق بها القرآن على لسانه وهو يدير طرفه الكسير في آفاق السموات والأرض، فيصرخ مستغيثاً: ﴿**لا احب الآفلين**﴾(الانعام: ٧٦) أى أريد خلاص نفسي من سجن الكون الذي سيأفل عاجلاً أم آجلاً، وأريد الانطلاق الى عالم البقاء والوجود الذي لا يزول ولا يحول، حيث المعرفة المطلقة التي تتهافت إزاء كل معارف الكون بنسبيتها ومحدوديتها.

هكذا يفسر «النورسي» كلمة «ابراهيم عليه السلام» وينشئ في معناها كلاماً يذوب شوقاً وحنيناً الى عالم «اللاكونية» الخالد الذي يتوق اليه كل انسان.

فالمعرفة الكونية هي حصيلة بحث الانسان وتجربته ومعاناته، لكنها تبقىٰ مع ذلك معرفة تحتية يهبط اليها الانسان من سماء التكريم الذي حظي به من ربّ العالمين، لأنه خُلق بالاصل ليكون حجة الله على الانسان، وليكون في الوقت نفسه في خدمة الانسان. فكلما اتسعت معرفته به اتسعت قدرته على تسخيره لمنافعه ومصالحه الدنيوية وليس العكس.

أما المعرفة الإلهية فهي معرفة فوقية مرتبطه بعرش الرحمن، ولا يرقىٰ اليها الانسان إلاّ إذا استجمع كل طاقاته، واستنفر قوى «العقل والحسّ والشعور والخيال والحَدْسِ» لتفتح له الطريق اليها، ولتكون رديفته في الفهم عنها ودرك مراميها و مقاصدها.

فما من لطيفة من لطائف «النفس الانسانية» كما يرىٰ «النورسي» إلاّ وقد أودعها الله تعالىٰ في الانسان لإعانته في الكشف عن حقائق عالمي الغيب والشهادة.

ورغم أهمية «العقلِ» في هدي الانسان الى الحق والحقيقة إلاّ أنّ «الحسّ والشعور والحدْسِ والخيال» هذه القوىٰ النفسية لا تقلُّ أهميةً عن العقل، بل هي من جنود العقل الذين يستعين بهم في مهامه، ربما فتح «الحدْس والخيال» الطريق أمام العقل للكشف عن حقيقة ما حار العقل وحده بالكشف عنها.

(٥)

وحقائق القرآن تقع من نفس المسلم موقع الإيمان و التصديق، وتنزل من وجدانه منزلة اليقين الذي لا ريب فيه. غير أنّ الحاجة كانت وما زالت قائمة الى تجلية هذه الحقائق، والغيبية منها بشكل خاص. ونقل صورها من الإطار الذهني غير المرئي الى الإطار الحسّي المشهود، عبر اسلاك الخيال، ومجسّات الحدْسِ والشعور.

فالميزة التي يكاد ينفرد بها «النورسي» وهو يعالج حقائق القرآن في رسائله، تكمن في قدرته العجيبة على إدراج الذهني منها بالحسّي، وإفراغ الحسّي منها بالذهني، وربط الزمان الدنيوي الفاني بالزمان الاخروي الأبدي، وكسر الحاجز الوهمي بين الدنيا المدبرة، والآخرة المقبلة. فيحسّ

قارئ رسائله وكأنّ الآخرة أقرب اليه من دنياه، وإنه يتنفس أريجها، ويستجلي جمال جنّاتها.

فالمعرفة الإيمانية إذن ليست سواء لدىٰ المسلمين جميعاً، بل هي متفاوتة الدرجات و متباينة في عمق الفهم وسعة الإدراك . فكما أنّ معرفة «القمر» من خلال رؤيته بالعين المجردة ليست كَمَنْ يعرفه من خلال مرصد فلكي، ومعرفة هذا الأخير ليست كمعرفة منْ يراه وهو علىٰ متن سفينة فضائية. وأوسع الجميع معرفةً به هم الذين نزلوا فوقه، ومشوا على أديمه، فهكذا القران – ولا مشاحة في المثال – فالمسلمون كلهم يؤمنون بحقائقه، إذْ لا يصح اسلامهم من دون هذا الإيمان، ولكن ثمّة تفاوتاً في درجات المعرفة بهذه الحقائق، فمنهم مَنْ يكتفي برؤاه وحدها، ومنهم من يستعين بعين غيره، وأعظمهم معرفة هم الذين يهبهم الله تعالىٰ من سعة الفهم والادراك ما يجعلهم قادرين على النزول على معانيه والهبوط على كنوزه، واكتشاف درره وجواهره.

والذي يبلغ هذا الشأوَ العظيم من الفهم والإدراك، هو وحده الجدير بالنظر الى حقائق القرآن ومعاني الإيمان من خلال بصره وبصيرته. وهو مجدد عصره الذي تتوجّه اليه الأجيال، و تشرئب له عقول الفحول من الرجال لتقتات بفكره، و تحيا على إرثه، الى أن يقيض الله تعالى مجدداً آخر يتسلم منه الأمانة ويمضي بها مقاوماً كُلّ من يريد قذف الإيمان خارج الزمن، وإبعاده الىٰ المكان الذي ينعدم فيه ثقله الفكري ويفقد وزنه المؤثر في التاريخ .

وهكذا قُدّرَ «للنورسي» أن يتسلم راية الإيمان في بلده وهي تترنح وتكاد تتهاوىٰ تحت أقدام الاعداء، فغدت مهمته الأولىٰ الأكثر إلحاحاً إنما

هي إنقاذ الأيمان، و مقاومة التآمر على الدين، وإحباط المحاولات المسعورة لقذفه خارج الزمن بالكلية، وإسقاطه بالتمام في يمّ النسيان، وتجريده من محتواه الحركي، ومن ثقله في ميزان التاريخ البشري بعامة والتأريخ الاسلامي بخاصة.

ورغم أنه نذر وجوده كله لإنقاذ الإيمان، والدفاع عنه، ورد نصال أعدائه الى نحورهم، والبرهنة على أنه الحَق الذي هو فوق كل حق، وأنه الحياة الذي لا حياة دونه، الاّ انه لم ينس دعوة المسلمين – الى جانب ذلك – بالانفتاح الى روح العصر، وتحذيرهم من الإنكفاء والتشرنق داخل الذات بحجة المحافظة على إيمان المؤمنين من التيارات العصرية المناوئة للإيمان، ودعا المسلمين الى الجمع في حياتهم بين «إيمانية العلم» و «علمية الإيمان».

فالانفتاح على معطيات العصر وتفهم منعطفات سيره، ورصد أبعاده الفكرية والمذهبية، ليس بالضرورة من أجل الوقوع في تياره، أو السقوط في مذهبياته، بل من أجل المزيد من الفهم لما يدور حولنا. فنكون على تماس مباشر بعصرنا، فلا يُعاب علينا سقوطنا في اغتراب زماني عنه، فنصبح في هذا الاغتراب وقد انقطع ما بيننا وبينه من حبال التواصل. فلا هو يفهمنا ولا نحن نفهمه.

وبنبغي لمن يتصدىٰ للعملِ التجديدي من أخذ ذلك بنظر الاعتبار. وواجب عليه أن يتعلم درساً بليغاً من «فتية الكهف» الذين حكى لنا القرآن قصتهم، فقد أووا الى الكهف حفاظاً على إيمانهم من كفر زمانهم، فمكثوا نائمين ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعاً، وعندما انتبهوا من نومهم وجدوا أنفسهم خارج الزمن في المكان الذي ينعدم فيه الوزن التاريخي

للانسان، فحاروا في أمرهم، فلا هم يستطيعون القهقرىٰ الى الزمن الماضي الذي انسلخوا عنه، ولا هم يستطيعون اللحاق بالزمن الذي سبقهم بتسع وثلاثمائة سنة، فحلّ القدر هذه المعادلة الصعبة بأسدال ستار الموت بينهم وبين الدنيا، وسحبهم نهائياً من فوق مسرح الحياة.

فقطار الزمن لا ينتظر من يتخلف عنه، بل يمضي في طريقه لا يلوي على شئ، ويترك من وراءه من المتخلفين في عماء من الغبار والدخان.

لقد هزّ «النورسي» بدعوته الى امتلاك ناصية العلوم الحديثة جدران الكهف الكبير المطبق بظلامه على عقول المسلمين، وأهاب بهم الى تقويض هذا الكهف والخروج الى النور والهواء والحياة، وناشدهم الاجتهاد في علوم العصر اجتهادهم في علوم الدين، لانّ كليهما – أى الدين والعلم – وجهان لعملة إلهية واحدة، أو هما نصفان لا تتجلى الحقيقة الإلهية بكامل حكمتها إلاّ باجتماعهما معاً.

(٦)

لقد عاش «النورسي» الى جانب حياته الشهودية وزمانه الدنيوي المحسوب بالأيام والسنين زماناً قرآنياً آخر يتلاطم موجه في روحه و عقله وكيانه، مندفعاً اليه من روح القرآن ومن زمانه الأبدي المهيمن على حبّات وجوده، والساري في خلايا سمعه وبصره ومخه وعظمه وعصبه. ومن هنا جاءت هذه القوة الغامضة التي يملأ بها نفوس جلسائه وعقول قرائه. فالكلمة الواحدة من كلامه بعفويتها تنطوي على ما في نفسه من قوىٰ القرآن كلها، وعلى سرّ أزليته وأبديته.

وكما يضع الكون سرّ بعض قواه في النواة من جسم الذرّة، هكذا يضع «النورسي» في الكلمة الصغيرة من كلامه، كلّ ماصبّه القرآن من قوىٰ في نفسه، وأفرغه في وجدانه. فلا غرابة – والأمر كذلك– أن يحسّ

قارئه أو سامعه وكأنّ شيئاً ينفجر في داخله، فيُسْمَعُ له دويٌّ إيماني يسري صوته في الزمن ولا يقف حتىٰ يغيب في قلب الأبدية.

فلحظة إيمان واحدة من إنسان تتسع وتستطيل وتتحول – بفاعلية الإيمان – الىٰ زمان أبديٍ من النعيم المقيم – كما يقول النورسي – والعكس كذلك صحيح، فلحظة كفر واحدة تتضخم وتتسع وتمتد لتتحول الى زمان أبدي من الجحيم.

فإذا كان «الكون» على سعته وامتداده، يمكن أن يختزل بعض أسراره في ذرّة من ذرات جسمه. فأنّ الزمن الكوني – مهما طال واستطال – يمكن كذلك أن يتضامّ وينكفئ في لحظة زمنية قصيرة المدى. فالمسافات الزمنية الموغلة في أمدائها قد تطويها لحظة زمنية خاطفة أو لحظات او دقائق او ساعات.

فعلىٰ ضوء هذه الحقيقة تصبح معجزة الإسراء والمعراج «على صاحبهما أفضل الصلاة والسلام». كما يعرضها «النورسي» في رسالة «المعراج» في متناول أفهامنا، وكذلك يصبح مفهوماً لدينا إحضار «عرش بلقيس» الى مجلس سليمان «عليه السلام» في طرفة عين.

فطي الزمان والمكان لأصحاب القوى الإيمانية الخارقة أمر ثابت من الدين بالضرورة. وقد أشار اليه الصوفية في كتبهم قبل أن يراود خيال القصاصين من أدباء الخيال العلمي في الغرب بزمن بعيد.

(٧)

إنّ إحساس «النورسي» بالزمن يبلغ درجة عالية من الانشداد والتوتر يجعله يشعر وكأنه يتدفق بتياره العظيم الهادر عبر عقله وروحه قبل كل شئ، وإنه ليرقب عمله الدؤوب في المحو والإثبات، والسلب والإيجاب،

فيمضي فوق كل شئ في هذا العالم فيمحو ما حقّه المحو، ويثبت ما حقّه الاثبات، ويقذف بالسلب الى هاوية العدم، وبالايجاب الى عالم الوجود. غير أنّ الخطورة كلّ الخطورة عندما يتوقف الزمن عند نقطة معينة من عقل المسلم ووجدانه ويعجز بكل قوته واندفاعه وهديره عن اجتياز حواجزه العقلية والنفسية، لأنّ إحساساً بالتوقف عن الحياة سينتابه ويشلّ قدرته على الابتكار والتجديد، ويعطل إرادته عن التخطيط لكى يكون الآن وفي المستقبل غير ما كان عليه بالامس، وعندئذ يأسن نهر الزمن في قعر وجوده، وتبدأ رائحة العفن تفوح من أفكاره ويشرع الانحلال والتشتت يغزوه وينخره من الداخل، ويصبح مهيأً للسقوط في دوامة الحياة اليومية وفي رتابتها المملة، بينما يتوقف جهاز الاستقبال عنده عن تلقي ما يرسله اليه العالم من رسائل، ويبثه من شفرات ورموز، ويجمد لديه حسّ الانشداه الإيماني الذي يرى البكارة والجدّة في كل شئ ينحسر عنه الزمن مهما بدا مألوفاً وعادياً.

ولهذا السبب ربط الاسلام بين عبادات المسلم وبين الزمن، في اليوم والليلة وفي الأسبوع والشهر والسنة. فلكل وقت عبادته الخاصة به، ولكل عبادة – جسدية او نفسية – لونها وطعمها الخاصان بها، دفعاً للملل، وتجديداً لقوىٰ النفس، وتحفيزاً لأعصاب الروح كما يرى «النورسي».

فالأذان – مثلاً – من فوق منائر المساجد المنتشرة في كل مدن العالم الاسلامي، ما هو الا صوت الزمن الهادر يقرع أذن المسلم خمس أوقات في اليوم والليلة، منبهاً الى أنه يمرّ ويمضي سريعا، وان عليه ان يظلّ يقظاً ويبقي على انشداده الروحي والتعبدي ولا يسمح لنفسه بالوقوع فريسة العوائد التي تأخذه في دوامتها لتنيسه الزمن وتصمّ أذنيه عن ندائه وهتافه.

فما من أحد يمكن أن يرتقي الى خارقة الفهم عن الزمن إلاّ إذا خرق عوائده أولاً. واخترق مألوفاته، وانسلّ من دوامة السطحية التي لا ترىٰ جديداً تحت الشمس، ليرىٰ كل شئ – في الحقيقة – جديداً تحتها مهما بدا عتيقاً او مألوفاً.

إنّ القرآن نفسه يدعو المسلم الى عدم التوقف عند درجة معينة في إرتقائه الايماني، بل يطلب منه أن يمضي صعداً في هذا الارتقاء الذي لا نهاية له، وأن يبقي روحه وعقله معلقين بالقرآن ليكشف له كلّ يوم جديد عن معنىٰ قرآني جديد، يزيد معارفه و علومه، ويغني أفكاره ويجددها.

ففي إشارة القرآن الى بعض شؤون الربوبية يقول: ﴿ **كُلّ يوم هو في شأن** ﴾ (الرحمن:٣٠) من شؤون خليقته و عبيده. فيلهم البعض أفكاراً جديدة، ويقذف في عقول آخرين علوماً مبتكرة. ويرفع بهذه العلوم والأفكار أقواماً، وينزل بآخرين، ويحي بها موات أقوام ويحجبها عن آخرين، ويقدر مقادير الخلق ويقضي فيهم بما يشاء، فيعطي ويمنع، ويضحك ويبكي، ويمرض ويشفي، الى غير ذلك من الشؤون، لحكمة هو يعرفها ولا نعرفها، في أُطر من العلل والمعلولات التي تحتجب وراءها يد الله كما يقول «النورسي».

(٨)

فالزمن هو ظلّ الكون، ونبض امتداده الدائم، وخفق حركته التي لا تتوقف، فهو إذن خارج تخوم الارادة الانسانية، وخارج حدود سيطرتها، إلا أنه – أي الزمن – قد أباح للانسان الحضور بإرادته ليسهم مع القدر في تشكيل التاريخ البشري، الوجه الثاني من الزمن الذي يمكن لإرادة الانسان ان تمارس وجودها وفاعليتها فيه.

فطرف التاريخ القريب والمشهود بيد الانسان، بينما طرفه الغيبي البعيد بيد القدر. فيد الانسان ويد القدر تسهمان معاً في تشكيل أحداث التاريخ ووقائع أيامه كما يقول «النورسي»

وهذا لا يعني بداهة أنّ الانسان واقع تحت جبرية قدرية لا يستطيع الانفكاك عنها . او الاستقلال بإرادته من دونها، لأنّ «القدر» – في الحقيقة – لا يتدخل مباشرة ولا يمارس ضغوطاً في عملية صنع التاريخ وصياغة احداثه ووقائعه، بل يلهم من وراء الغيب البعيد شخوص المسرح التاريخي ما ينبغي فعله إزاء واقعة معينة، وفي زمان ومكان معينين.

فحين أراد «القدر» أن يهيئ «موسىٰ» عليه السلام للتصدي لفرعون خطط لأنقاذ طفولته من القتل، فألهم أمه ما ينبغي أن تفعله: ﴿ **أن أقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليمّ فليلقه اليمُّ بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له** ﴾ (طه: ٣٩).

فهذا الطفل الرضيع لم يكن ليصلب عوده، ويشتد ساعده، ويصبح مهيأً لتحّمل تكاليف النبوة والرسالة، مالم يُخلّ – بادئَ ذي بدء– بينه وبين الحياة، لتفركه وتعصره عصراً، وتجعله يتقلب في أتونها، ويتجرع حلوها و مرّها . ويخوض في سهلها و حزنها، تحت عين الله : ﴿ **ولتصنع على عيني** ﴾.

والقدر بعد هذا لا يفعل اكثر من أن يستفز – في غمرة الاحداث عِرْق البطولة في النفوس، ويثير بلسان الوقائع الحسّ البطولي في الوجدان، ويهيج شعور الرجولة في الذات، ثم يمضي ويترك للانسان صاحب الشأن الحرية كاملةً في الاستجابة لهذه المحفزات والارتفاع الى مستوىٰ المسؤولية التاريخية، او عدم الاستجابة لها.

فأصحاب النفوس العظيمة هم وحدهم القادرون على أن يستوحوا القدر. ويستبطنوا إرادته، ويصيخوا لهتافه، ويستوعبوا إشاراته، ويفهموا عنه، فيسارعوا بالإستجابة، ويحظوا بشرف الإمساك بطرف التاريخ المحدود اليهم من القدر. ليسهموا معه في توجيه مساره، وصنع أحداثه ووقائعه .

وأما الذين يضعون أصابعهم في أذانهم، ويستغشون ثيابهم، وينكصون على أعقابهم، فلا يعبأ بهم القدر لأنهم غير جديرين بامتلاك التاريخ من جانبه الإنساني.

(٩)

فالواقعة التاريخية بيد الإنسان عمل إبداعي ينبعث وميضه من إرادة الإنسان فوق صفحة الزمن بغض النظر عن حكمنا الأخلاقي عليه.

وهذه الإرادة لا تحقق حضورها في التاريخ، إلا إذا بلغت من القوة والحيوية والاندفاع حدّ البطولة. لتزيح من طريقهاجميع الإرادات البشرية المناوئة والمضادّة. ولتمضي في الطريق نحو التشكل فعلاً تاريخياً معيناً بشرط ألاّ تصطدم بإرادة الكون المتمثلة في سننه ونواميسه لانها غالبة لا محال وبشرط آخر هو ان يمنحها القدر الإلهي جواز مرور نحو الهدف الذي تريد والذي لابد أن يخدم بمحصلته النهائية غايات القدر ومقاصده.

ولئن كان رجل التاريخ يعالج الواقعة التاريخية ويشكّلها من طينة الحاضر وخاماته التي بين يديه، غير أن « القدر » بشموليته وإحاطته بالماضي والحاضر و المستقبل يبصر خارطة التاريخ البشري بأبعاده الثلاثة . ويحدد مواقع الاحداث فوقها، فتأتي أحكامه على الحدث من هذا المنظور

الشمولي المحيط الذي لا يأبه بقصور نظر الانسان وخطأ حكمه على الحدث.

فالقدر هو المهندس الأعظم الذي يصمم خارطة بناء التاريخ البشري بأسره، فهو يمتلك علماً كاملاً عمّا سيكون عليه هذا البناء بعد الفراغ من تشييده، بينما لا يمتلك البنّاءون البشر تصوراً متكاملاً عن الصورة التي سيتشكل فيها بناؤهم في خاتمة المطاف. فتتوالى اعتراضاتهم واستنكاراتهم حول ما يحسبونه خطأً في التصميم ضمن جوانب جزئية من البناء. يحصرون همّهم فيها لعجزهم عن الاستيعاب الكلي والشمولي.

فقد يستنكر الانسان وقوع حدث ما باعتباره – من وجهة نظره المحدود والقاصر– شراً ما كان ينبغي للقدر بخيريته وقدسيته أن يسمح له بالمرور والتحقق، من غير أن يستشف ما يمكن أن يؤول اليه في المستقبل القريب أو البعيد من خير،فالانسان كثيراً ما يخطئ في الحكم على أخص شؤونه الحياتية. فيرى الشئ فيحسبه خيراً له، بينما يراه القدر شراً له. والعكس صحيح أيضاً . والى هذا الاشارة في قوله تعالىٰ: ﴿**وعسىٰ أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسىٰ أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم**﴾ (البقرة: ٢١٦).

هكذا ينظر « النورسي » الى التاريخ البشري بعامّة والاسلامي بخاصة. فهو يرىٰ أنّ ما من شئٍ يحدثه القدر في هذا العالم الاّ وهو جميل بذاته، او جميل بما سيفضي اليه من الجمال في غيره .

(١٠)

وحين نقلب صفحات التاريخ يطالعنا من خلالها جسد البشرية الشبحي مثخناً بالجراح والآلام، وتتراءىٰ لنا رؤاها الدموية والعدوانية.

وتتماثل أمامنا صور احلامها الحمراء، وتفجؤنا أفكارها المتقاتلة، وحضاراتها المتصارعة.

لأنّ الانسان – الذي يمسك بأحد طرفي التاريخ – هو معضلة الكون الكبرىٰ التي أعياه حلّها، ورغم أنه كائن كوني، إلاّ أنه الكائن الوحيد المتمرد على قانون «التعاون والتساند» المهيمن على الكون كما يرىٰ «النورسي».

هذا القانون هو الذي منح الكون جماله ونظامه، وأشاع فيه الأمن والأمان، ورسم لكل جزء من أجزائه عمله ووظيفته، فلا صدام ولا صراع، بل تعاون وتساند: ﴿ **لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلّ في فلك يسبحون** ﴾ (يس: ٤٠) يعاون بعضها بعضاً ويؤازر بعضها بعضاً كلٌّ ضمن سيره و عمله.

غير أن الصراع هو القانون الأشدُّ هيمنةً علىٰ بني الانسان، فكثيراً ما يخفت فيه صوت العقل، ويرتفع صوت غرائزه البدائية المتوحشة. فتدفع به الى الاستئثاب ضد أخيه الانسان، فلا يفلته حتىٰ ينشب مخالبه وأنيابه فيه، إشباعاً لرغبته في التملك والاستحواذ على الآخرين والتفوق عليهم. وقد نبّه «النورسي» الى خطورة ذلك على البشرية. وبين أن شقاءها راجع الىٰ تمردها على «قانون التعاون والتساند» الكوني. ودعا المسلمين الى الإلتزام بهذا القانون واحترامه والخضوع له، لاسيما في هذا العصر، عصر الجماعات وليس عصر الأفراد، فيجب أن يكون – كما هو الكون – المسلم الواحد في خدمة كل المسلمين، وكلُّ المسلمين في خدمة المسلم الواحد.

فعصرنا الذي نحياه يبلغ بثقل حضارته – وضغوط أفكاره ومذاهبه، وكثرة ما يطرحه من إشكاليات فكرية وحضارية – مالم يبلغه عصر قبله.

فالانسان وحده – مهما كانت إمكاناته – غير قادر على تحمل ضغوط العصر. ومواجهة تحدياته مالم يجد في الآخرين السند الذي يستند اليه، والعون الذي يعينه ويقويه ويغريه بقبول التحديات وحل العقد والأشكاليات.

« فالانسان الكامل » الذي يرد ذكره على ألسنة الصوفية في كتبهم، أو « الانسان المتفوق » كما يطلق عليه الغربيون. والذي يحلم هؤلاء وهؤلاء بالوصول اليه عن طريق الذاتية الفردية والانكباب على « الذات » وتزكيتها صوفياً أو فلسفياً، يمكن للجماعة المؤمنة – بشخصيتها المعنوية أن تقوم مقامه، وتشكل وجوده، لأنّ ما ينقص أي فرد منها من خصائص الكمال يمكن أن يجده عند إخوانه من الجماعة المؤمنة فـ (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً) كما قال عليه الصّلاة والسّلام، وشبّك بين أصابع يديه الشريفتين.

فالفرد – كما يقول النورسي – مهما بلغ من العبقرية، فهو يفكر بعقل واحد، وينظر بعينين ويسمع بأذنين، ويعمل بيدين، وينطق بلسان واحد، ولكنه عندما يكون واحداً من عشرة، فأنه يفكر بعشرة عقول، وينظر بعشرين عيناً، ويسمع بعشرين أذناً، ويعمل بعشرين يداً، وينطق بعشرة ألسن.

فالكل هنا يندغم في « الواحد » و « الواحد » يندغم في « الكل » فلا عجب إذا ما كونت شخصية الجماعة المعنوية مثال الانسان الكامل المنشود.

فرسائل النور الثلاثون والمئة التي كتبها «النورسي» وأملاها علي طلبته، تشكل كل رسالة منها جزءاً من فكرها العام الذي يحتويها جميعاً، وتبين عن شخصيتها المعنوية المستقلة بذاتها عن كاتبها، حتىٰ أنّ «النورسي» لينظر فيها، ويستشهد بها، ويحيل عليها، وكأنها ليست من بنات أفكاره، اومن نتاج عقله، او كأنّ كاتبها شخص آخر غير شخصه.

فهذه الرسائل ترسم ملامح «الانسان الكامل الجمعي» كما ينبغي أن يكون، وتحاول أن تبعثه مثالاً حياً بشموخه ونبله وعمق إيمانه، وسعة عقله، وطهر سلوكه، ونقاء روحه وضميره، ليصبح المحور الذي يدور حوله طلبته، ويجتمعون عليه كما يجتمعون على إنسان حي من لحم ودم. مكونين بذلك الجماعة المؤمنة بذات معنوية واحدة، هي الانسان الكامل الذي يسعىٰ اليه فلاسفة الصوفية، وصوفية الفلاسفة.

فإذا كان الانسان الفرد هو البشرية كلها مختزلة فيه، والبشرية هي الانسان الفرد مضخماً ومكبراً: ﴿**ما خلقكم ولا بعثكم إلاّ كنفسٍ واحدة**﴾ (لقمان: ٢٨). ﴿**مَنْ قَتلَ نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً ومنْ أحياها فكانما أحيا الناس جميعاً**﴾ (المائدة: ٣٢). فكذلك الجماعة المؤمنة هي كل فرد من أفرادها، وكلُّ فرد من افرادها هو الجماعة المؤمنة بأسرها.

وهذا هو المجتمع الإيماني الذي يؤشر بعض ملامح «عصر النبوة السعيد» الذي يذكره «النورسي» في رسائله ويستشهد به، باعتباره المجتمع النموذجي الذي تتطلع اليه الانظار وتهفو اليه الأفئدة.

وإنّه – أي النورسي – ليأمل أن ضمير الغيب سينفتح يوماً ما عن الشباب المؤمن الطاهر وسيقذف بهم الزمن الى عالم الشهادة ليبنوا مجتمع الإيمان ويعملوا على إحياء العلوم الإيمانية بكل أبعادها الحياتية، والإلتزام بها طواعيةً لأنها إلتزام بالحياة نفسها: ﴿ **يا أيّها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ (الانفال: ٥٤).

والبشرية نفسها وهي تعاني اليوم فقراً روحياً مدقعاً، وبؤساً إيمانياً مخيفاً تنتظر انبثاق الفجر الإيماني المرتقب ليجدد روحها الذي شاخ وهرم ويغذوه بالنور والحياة ويعيد اليه شبابه ورواءه.

فإحياء العلوم الإيمانية عندما توشك على الموت والاندثار يعجل – بلا شك – بقدح زناد الإنفجاز الإيماني الكبير في قلب الأمة ووجدانها. فالناظر بدقة الى ما كتبه «الغزالي» رحمه الله في كتابه «إحياء علوم الدين» وما كتبه «النورسي» رحمه الله في «رسائل النور» يلمح اكثر من آصرة وسبب يصل بين المؤلّفَين وبين صاحبيهما.

فعصر «الغزالي» «٤٥٠– ٥٠٥هـ» عصر ضاعت فيه العلوم الإيمانية، وفقدت جدّتها وحيويتها بين عشرات الفرق والمذاهب المتصارعة.

فجفاف الفقهاء ويبس ارواحهم كاد يطفئ نور القلب في الانسان المسلم، والفلسفة اليونانية بقالبها الاسلامي المزعوم وبتجريداتها وصلت بالألوهية الى حدّ الضبابية والشبحية والتهريم في «اللاّوجود». أما الظاهريون والحرفيون فقد أوشكوا على الوقوع في التجسيم. والباطنيون فسروا النصوص تفسيراً باطنياً رمزياً موغلاً في التمحل والبعد عما يتسع له

النص وأساليب العربية في البلاغة والبيان. أضف الى هذا كله مجموعة كبيرة من الزنادقة والملاحدة المتسترين وراء شتىٰ المذاهب والجماعات والفرق. فأخذ «الغزالي» على عاتقه مهمة التصدي لانحرافات بعض الفرق، وتفنيد أباطيل البعض الآخر، وآل على نفسه أن يعيد ماء الحياة الى علوم الدين من جديد، فصنف كتابه العظيم «إحياء علوم الدين» هذا الكتاب الذي أعاد لعلوم الدين النقاء والصفاء، فكان السبب في إذكاء شعلة التوق الىٰ الله تعالى في قلب الامة بعد ما كادت تختنق وتنظفى تحت ركام الدمار الروحي الذي أصابها.

وعصر «النورسي» «١٢٩٤ -١٣٧٩ هـ» يشبه في أباطيله عصر «الغزالي» مع الاخذ بنظر الاعتبار ما أضافة فارق الزمن بين العصرين من إضافات وتعقيدات. فهو عصر زلزالي خطير، هزّ كل ما توارثته البشرية من قيم ومثل وأفكار. وأشاع فيها الفوضىٰ والاضطراب والشك والقلق، وهو زمن التفجرات الفكرية والنفسية للبشرية قاطبةً.. وهو عصر الثورة والتمرد على الدين والإيمان والفضيلة..

وهو أيضاً عصر «تأليه العلم» وعبادة «العقل والطبيعة» وهيمنة الشك حتىٰ على مسلمات الانسان وبدهياته المنطقية وأصوله العقلية.

فبادر «النورسي» كالغزالي الى التصدي لهذا الطوفان اللاديني المخيف، وشرع في كتابة «رسائل النور» وفي محاولته لإنقاذ الإيمان مما يتهدده من مخاطر الزندقة والإلحاد كان لابد له من العمل بقلمه على إذكاء شعلة التوق الى الله من جديد في قلب الأمة وضميرها، فكان «النور» وكانت «رسائل النور».

ولو قُدّرَ لي – يوماً ما – أن التقي قبره الضائع بين القبور لاستأذنت طلابه في الكتابة على شاهد قبره هذه العبارة:

(هنا يرقد واحد من أعظم مَنْ كتب للإيمان في هذا العصر ومن اكثرهم معرفةً بإذكاء شعلة التوق في القلوب الى الله)

رحم الله «النورسي» وجزاه عن الإيمان والمؤمنين خير الجزاء.

* * *

الفكر والمنهج
عند النورسي

١ - كيف نفهم «النورسي»؟

من هو «النورسي» رحمه الله...؟ وما السبيل لفهمه..؟ ومع اي من اصحاب الأقلام نصنفه..؟ وفي اي حقل من حقول المفكرين المعنيين بالإيمان ندرج اسمه..؟

هذه الاسئلة وامثالها ما زالت حتى اليوم وبعد مضي ما يقرب من ربع قرن على وفاته تراود ذهن الناقد الذي يقرأ «النورسي»، وتلح عليه لكي يجد لها الجواب الشافي، ليضع هذا المفكر المسلم في «مفهومة» معينة من مفهومات المدارس النقدية، او يصنفه ضمن واحد من الاصناف التي يصنفون بموجبها المفكرين واصحاب الرأي والقلم من المعنيين بشؤون الدين والايمان..

وانسان ألمعي كـ «النورسي» اذا كتب عن «الحياة والانسان والايمان» فلابد ان يبدع ايما ابداع ويأتي بكل طريف وجديد.. وهو حين يتناول القلب الانساني ويلمسه بأنامل ايمانه لا يغادره حتى يضئ وينير.. ويظل يحفر في صخور النفس حتى تتفجر فيها ينابيع الخير والجمال.. وهو كذلك يحاور العقل المتفلسف ويناقش منطقه، ويناوش شكه ولا ينفك عنه

حتى يهرع مطمئناً الى الايمان واليقين.. وهو في غمرة هذه الاهتمامات العالية لا ينسى ان يكتب للحزانى والمكروبين مواسياً، ويسري عن «المرضى والشيوخ» آلامهم واوجاعهم، ويسكب في قلوبهم وارواحهم بلسم الامل وترياق العزاء...

فمفكر عملاق مثل «النورسي» يمكن للمدارس النقدية جميعها ان تجد لها حظاً فيما ترك من عظيم الاعمال، وغزير الاهتمامات، ولكن يصعب على واحدة منها ان تحتويه او تعتبره واحداً من روادها دون منازع..

ورغم انه هين لين سهل النفاذ الى القلوب والعقول، فانه «مفكر صعب» يحار الناقد مع الوان فكره المتشابكة، كيف يميز اللون الذي له التفرد والغلبة على بقية الالوان.

٢ - منهج «النورسي» والفلسفة:

والرأي الجامع في «النورسي» والذي لا اظن ان اثنين يختلفان عليه، هو كونه مجدداً في كل ما تناوله من شؤون الدين والفكر والحياة.. وهو تجديد ينتظم مناهج البحث وطرائق العرض، وأساليب المعالجة..

ولكونه يملك عقلاً تركيبياً جامعاً، وفكراً استيعابياً شمولياً، واهتماماً بالكليات الاساسية العامة التي تندرج تحتها جزئيات اية قضية يعالجها ومفرداتها، فانه يبدأ بهذه الجزئيات والمفردات في بناء صروحه الفكرية، فيعلو تدريجاً ويعلو، ضمن منهج ذهني طويل النفس، واضح المعالم، مستعيناً في عملية البناء وترسيخ الاسس بالامثال في غالب مايتناول من افكار مجردة، حتى يكتمل الصرح، ويقعد البناء على قاعدة كلية واساس

عام راسخ.. ثم يبدأ بوضع اللمسات الاخيرة في هذا البناء، ويتوجه بالآية الكريمة من كتاب الله، او الحديث النبوي الشريف من سنة الرسول ﷺ. فاذا بالآية او الحديث وقد سطعا بنورهما فوق هذا الصرح، وانارا زواياه وجوانبه، واضاءا اطرافه، فيدلف القارئ اليه محاطاً بالنور من كل جانب فلا يتعثر في مشيه، ولا يتهجس في سيره.

على ضوء ما تقدم هل يمكن اعتبار «النورسي» فيلسوفاً..؟ او عقلياً يعتمد العقل اساساً فيما يعالج من امور الفكر والدين والحياة..؟

صحيح ان منهجه يشبه الى حد ما مناهج الفلاسفة العقليين، وصحيح انه يلتقي معهم في «العقل التركيبي الجامع، والفكر الاستيعابي الشمولي، والاهتمام بالكليات» الا انه يمضي ابعد منهم ويتجاوزهم، ويسمو فوقهم بمراتب.. ذلك لان الفلاسفة – والتقليديين منهم بشكل خاص – يقفون عند حدود العقل لا يتجاوزونه، ولا يرون ما وراءه او بالاحرى لا يريدون ان يروا ما وراءه. اما «النورسي» فيظل ماضياً مع العقل الى حدود ما يستطيعه ويطيقه، فاذا كلّ وتعب جاوزه الى «الحدس» الذي هو اسرع انتقالاً في الفهم والاستنتاج، واصدق احساساً بالحقيقة من العقل، وارهف شعوراً بعالم «ما وراء العقل»، وأقدر على النفاذ في اعماق الغيوب.

٣ – «النورسي» والتصوف:

ولا تحس وانت تقرأ «النورسي» في بناه الفكرية بما تحسه في بنى المفكرين الآخرين، من صرامة المنطق، وثقل البناء، وجهامة الاسلوب.. بل تحس بالرجل وكأنه يدفع بأفكاره – قبل ان ترى النور – الى قلبه لترق هناك وتشف، وتخرج من ثمة ترف رفيف الفراش، فيلتقطها قلم روحي المنبت،

سماوي المداد، كوني اللون والضوء، فلا تكاد عينك تصافح ما كتب حتى ينفذ الى قلبك بلمحة خاطفة، ويسري الى روحك كما يسري البرق في ظلمة الليل، ثم يتلقفه ذهنك وله من قلبك وروحك – في الفهم – سند أي سند..

هذه الطريقة في الكتابة التي تبدأ ذهنية في جزئياتها واولياتها، وتنتهي روحانية قلبية ذوقية في قمتها، هي التي أوقعت بعض الذين قرأوا «النورسي» في خطأ اعتباره صوفياً كبيراً، او صاحب مدرسة صوفية جديدة.

ولاشك ان «النورسي» قد عرف التصوف معرفة تامة، وخبر اصوله، ومارس في حياته بعضاً من الوانه، وقرأ لعمالقة التصوف وتأثر بهم.. وكشف عن عقده ومشاكله، واطلع على مزالقه، وشاهد ايجابياته التي تخدم «الايمان» وترفده وتقويه، ووقف على مهاويه ومخاطره التي اهلكت خلقاً كثيراً، وقد تضمنت رسالته «التلويحات التسعة» مجمل آرائه في «التصوف».

وهو وان كان يكن للتصوف الصافي الخالص من الشوائب، والنابع من السنة النبوية الشريفة الاحترام والتقدير. الا انه لم يكن صوفياً، وهو صاحب المقولة المشهورة: «ان عصرنا عصر انقاذ الايمان».

وهو يعتبر «التصوف مرحلة من مراحل الارتقاء الايماني، وليس قمة هذا الارتقاء، وثمة درجة اعلى منها واسمى هي درجة التلقي عن القرآن الكريم مباشرة واعتبار القرآن الكريم الاستاذ والشيخ والامام الذي ينبغي للمسلم ان يستمد منه الهمم والامداد.

وقد كتب ثلاثين ومئة رسالة في شتى «العلوم الايمانية» التي تضمنها القرآن الكريم واطلق عليها اسم «رسائل النور» لانها تقبس من نور القرآن، وتستنير بأضوائه، لذلك فهو يقول عن نفسه بكل تواضع انه «خادم القرآن».

٤ - «النورسي» والسنة النبوية الشريفة!

تشكل «السنة النبوية الشريفة» في فكر «النورسي» معلماً ايمانياً لا ينبغي لاحد من المؤمنين ان يتجاوزه، او ينفلت منه، او يبتدع من الاقوال وطرائق العبادات ما تنكره، ولا ينسجم مع روحها العام.. ولكن «النورسي» ليس حرفياً في تعامله مع السنة ونصوصها، وليس ظرهرياً - الى حد الجمود - في التلقي عنها والفهم منها.

ولكنه يرى في الرسول الكريم محمد ﷺ «صاحب السنة» ذاتاً متقطرة من روح الكون، ونبضاً مع نبضات قلبه، وصورة مجسمة هو اطهر صور فكره وخياله.. وهو - كما يحلو له ان يعبر ايضاً - مرآة الكون، والكون مرآته.. لذلك فان سنته ﷺ، عظيمة عظم الكون، واسعة سعته، شاملة - شموله، وهي لا تتعارض - بداهة - مع سنن الكون ونواميسه، بل تلتقيان لتكونا - معاً - الناموس الاعظم للكون والحياة الذي لا تجد الانسانية حقيقة وجودها الا في كنفه والسير على هداه.

فكلام الرسول ﷺ -اذن- واحاديثه الشريفة، تنبع من عالم الشمول هذا، وتتنزل من سماء السعة العظيمة التي تتألق فيها المعاني والافكار، وتهبط من عرش «الرحمن» على قلبه فينطلق بها لسانه: «وما ينطق عن

الهوى»... فحديثه ﷺ ينبغي ان يفهم على هذا الضوء وأي توقف عند «حرفيته» او ظاهريته فحسب، هو – في الحقيقة – حصر لما لا يمكن ان يحصر، وجمود يحدد النظر ويمنعه من الرؤية العميقة والبعيدة وربما يفوت «الحرفيين» و «الظاهريين» من معاني الحديث الشئ الكثير، وقد كان من الممكن ان تتفتق لهم من معانيه ما لم يخطر لهم على بال بقليل من شمولية النظرة، واستيعابية الفهم.

هكذا يفهم «النورسي» رحمه الله السنة، وهكذا يتعامل مع نصوصها، ويستنبط الجديد والطريف.. وسيجد قارئ رسائله ما يطمئن به الى دقة نظرات الرجل، وسعة فهمه، وعمق ادراكه، وصواب ما توصل اليه من فهم جديد وواسع للسنة الشريفة..

٥ – «النورسي» والقرآن الكريم:

لقد كان لكلمة «الامام الرباني» في واحد من مكتوباته «وحد القبلة» صدى عميقاً في نفس «النورسي» رحمه الله، حتى احس وكأنه هو المقصود بهذه الكلمة، وانها تعنيه بالذات قبل غيره، لانه كان – على ما يبدو– في حيرة من امره لا يعرف كيف يبدأ رسالته الاصلاحية، ومن اين يبدأ؟ فجاءت كلمة الامام الرباني «وحد القبلة» على قدر وكأنها تتوجه اليه بالأمر ان يوحد قبلة فكره وروحه وقلبه، ويجمع «الكل» على «القرآن الكريم» ويتلقى منه وحده ويأخذ عنه ويعتبره الاستاذ والمرشد فيجلس بين يديه ويتلقى منه الاسرار والفيوض والرحمات، فاستمع اليه حيث يقول:

«كنت اجلس بين يدي القرآن، ادير طرفي فيه، وانتظر انكشاف أسراره وكنوزه، واطلب ببركته قضاء حاجاتي كلها – حتى الدنيوية منها

وكان يحصل مطلوبي، ويقضي مرادي، من حيث لا احتسب، وبصورة لم تخطر على البال».

وقد بلغ من تشربه العظيم بالقرآن الكريم، واستيعابه لاغراضه ومقاصده وغاياته، انه كتب الكثير من «رسائل النور» في ظروف قاسية، ولم يكن في متناول يده من مصادر سوى القرآن نفسه.

ويكفي ان تعلم انه الف كتابه الفذ في التفسير «اشارات الاعجاز في مظان الايجاز» اثناء تنقله في ساحات القتال، وبين الخنادق والملاجئ في الحرب العالمية الاولى في الجبهة التركية الروسية، ولم يكن معه من مصادر التأليف سوى القرآن وحده.

وقد تأثر «النورسي» بأساليب القرآن وطرائق دعوته تأثراً عظيماً، فملكت عليه لبه ومشاعره، واتخذ من منهجه – في الجمع بين هتاف العقل ونداء الروح في الآية والسورة – مثالاً يحتذى به، وينسج على منواله في كتاباته التي يقول عنها في مقدمته «للمثنوى العربى» انه سلك فيها «طريقاً غير مسلوك في برزخ بين العقل والقلب» فاستمع اليه يقول:

«ان السعيد – يقصد نفسه – في سياحته وسلوكه ذلك السلوك في تلك المقامات، كان ساعياً بالقلب تحت نظارة العقل، وبالعقل في حماية القلب، كالامام الغزالي، والامام الرباني، ومولانا جلال الدين الرومي».

فلا يفتح باباً من ابواب القلب الا تحت نور من انوار العقل، ولا يلج منفذاً من منافذ العقل الا على جناح من اجنحة القلب..

وهذا بالفعل ما تطالعنا به كتاباته في كل رسائله:

منطق عقلي يمضي على مهل ويمضي، حتى اذا اوشك ان يصلب ويثقل، ويصدم النفوس والعقول بثقله وصرامته، بادره القلب برفيفه والروح بخفته ورشاقته، فاذا به يشف ويخف ويمضي منساباً الى النفوس عذباً سائغاً، وفراتاً سلسبيلاً، يسعفه قلم مطواع قادر على الاداء والتعبير عن اعقد معضلات الفكر، وادق خفايا الروح والوجدان، ضمن عبارة هي الغاية في القوة والاشراق والوضوح، وجملة هي القمة من جمال البيان وسحر التعبير، فلا غرو بعد هذا كله ان يشيد «محمد عاكف» شاعر تركيا الاكبر بقدرة النورسي الادبية، وطاقاته التعبيرية، وبلاغة اسلوبه، ورشاقة ادائه، حتى ليضعه الى جانب كبار ادباء العالم. ويصرح بين جمع من العلماء: «ان شكسبير وهيجو لا يبلغان الا الى مرتبة تلميذ النورسي في الادب والفلسفة».

٦ - الاعتدال في منهج «النورسي».

ومنهج «النورسي» المعتدل، ونزاهة فكره، وكرهه للتعصب، واجتنابه تجريح الآخرين من دون تفحص وتدقيق، ورفضه ان يتخذ موقفاً مسبقاً من الجماعات قبل التعرف على افكارهم ومذاهبهم في مظانها الاصلية.. كل هذه الصفات - والتي هي صفات العلماء الحقيقيين - هي التي اهلت «النورسي» لكي يتناول - بتجرد ونزاهة فكرية - موضوعاً خطيراً من المواضيع التي شغلت وما زالت تشغل عقول المسلمين وقلوبهم، الا وهو «السنة النبوية وحقيقتها الروحية» وينثره في رسائله فيبدع فيه ايما ابداع ويأتي فيه بالجديد والمفيد.

* * *

نظرية المعرفة
عند النورسي

(١)

يقف المسلم اليوم على مشارف القرن الحادي والعشرين، ونفير العصر مازال يصك سمعه بالمزيد والجديد من الافكار والثقافات والعلوم.. ولانّ حاسّة النقد والتقويم عنده تكاد تفقد – بالاهمال والتعطيل – القدرة على التمحيص والاصطفاء، فهو قلّما يحسن التمييز والتفريق – في هذا الطوفان الفكري الهائل – بين ما هو ايماني المنبت من غيره من المنابت والجذور.. ولكونه يفتقر الى نظرية محكمة في المعرفة يواجه على ضوئها هذه المعطيات، وتتيح له امكانية التعامل مع طروحات العصر من منطلقات فكرية ووجدانية راسخة وغير هشة ولا مهزوزة.

فاشكالية المسلم المعاصر التي يحاول المعنيون بشؤونه الفكرية حلّها والتغلب عليها، يمكن طرحها من خلال السؤال الآتي:

كيف يمكن للمسلم ان «يعرف بايمان».. ؟ وان «يؤمن بمعرفة» ؟

وبسؤال اكثر وضوحاً:

كيف يستطيع ان يجعل من «الايمان» طريقاً الى «المعرفة» ؟ ومن «المعرفة» طريقًا الى «الايمان» ؟

وفي محاولة جادة للجواب على هذا السؤال،كتب ائمة المسلمين ومفكروهم- ومنذ البدايات الاولى لهذا القرن - مئات الكتب والابحاث والمقالات كلٌ في ميدان اختصاصه عن « التطابقية » بين حقائق الاسلام، وحقائق الكون والحياة التي كشف عنها العصر الحديث، وعن صلة القربى الباطنية العميقة بين صدق الفكر الديني، وصدق الفكر البشري الذي لم تتلوث فطرته بالاباطيل والاوهام.

غير ان هذا الجهد المشكور الذي لا يشك احد في اثرائه للفكر الاسلامي، ظل شتاتاً متفرقا ومبعثراً، لا يجمع بيه جامع، ولا يربط بين اجزائه رابط، ولم يُختزَلْ في « مقولة معرفية » يمكن ان يجد فيها المسلم مفتاح « معرفة ايمانية » تجعله قادراً على مواجهة ما يطرحه عصره من معارف بكفاءة عقلية وايمانية عاليتي المستوى.

فالاتجاه الثقافي لهذا العصر يوجب على اصحاب الفكر تنظيم مفرداتهم الفكرية وحصرها في نظرية ذات وحدة واحدة، ويتطلب ايجاد رابط ذهني يشد هذه الجزئيات ويسلكها في سلك معرفي واحد، يمكن من خلاله التعرف على جوهر الفكر المعروض وحقيقته واصوله.

ومن هنا تميز هذا العصر بكونه عصر « النظريات والمعادلات والقوانين والرموز والارقام » المُختزِلَة لكليات مذاهب الانسان ومعارفه وثقافاته وعلومه.

بينما مايزال اولو الرأي والفكر فينا تستنزفهم المفردات والجزئيات من الافكار، ويستغرقهم الجدل العقيم في الهوامش والفرعيات، ولم تجر سوى محاولات نادرة لتصنيف هذا الشتات الفكري في خط معرفي متكامل واضح المعالم يغنينا بكليته عن الرجوع الى مفرداته وجزئياته.

(٢)

وواحدة من انجح تلكم المحاولات النادرة ما فعله « النورسي » رحمه الله في رسائله. فرسائله كلها الثلاثون والمئة، انما هي قاعدة عريضة ومتينة لمعرفة ايمانية يمكنها اذا نحن استوعبناها ان تشعرنا بالامتلاء الفكري والوجداني، وبالقدرة على مواجهة اية اشكاليات فكرية ووجدانية تفجؤنا بها الايام.

وهذه المعرفة الايمانية التي رسم « النورسي » ملامحها، وخطّ حدودها منبثقة من فهمه لقوله تعالى: ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق** ﴾(فصلت: ٥٢) فهو يرى في ضوء هذه الآية العظيمة ان ما من معرفة مما تتبادلها العقول فيما بينها الا وترجع في اصولها الاولى الى واحدة من المعارف الثلاث الآتية:

١ـ معرفة كونية تشمل علوم ما في السماوات والارض وما بينهما وما تحت الثرى.

٢ـ معرفة انسانية تشمل الكينونة الانسانية وكل ما يتعلق بالانسان فرداً ونوعاً ظاهراً وباطناً.

٣ـ معرفة الهية ترتبط بوجود الله تعالى و بربوبيته وشؤونه في خلقه.

وهذه المعارف الثلاث متلازمة يلازم بعضها بعضاً، ويسند بعضها بعضا، ويدل بعضها على بعض وهي في تعاشق دائم لا ينقطع فليس ثمة معرفة متفردة ومستقلة ومنعزلة في هذا العالم.

فكوني مؤمناً يلزمني ان اعرف لان المعرفة تقويني وتعلمني لماذا يجب ان اكون مؤمناً.

وكوني اعرف بصدق وعمق، فان معرفتي تغدو درجات في سلم ارتقائي الى معرفة اسمى هي معرفة الله تعالى.

وكوني انسانيًا مهتمًا بشؤون الانسان وبكينونته ووجوده ومصيره، ومتعرفًا على سرّ ما ينطوي عليه باطنه من عوالم واكوان رغم صغر حجمه ستفضي بي هذه المعرفة حتمًا الى معرفة خالق هذا الانسان وموجده.

(٣)

فهذه المعارف الثلاث تتعاشق فيما بينها كما تتعاشق زوايا مثلث متساوي الاضلاع. تقوم قاعدته في احد طرفيها على « المعرفة الكونية »، وعلى « المعرفة الانسانية » في طرفها الآخر، بينما تعلو قمته « المعرفة الالهية ».

وعندما نقرأ المثلث من اي رأس فيه. فيمكن ان نرقى بقراءتنا من القاعدة الى القمة، او ننزل من القمة الى القاعدة، اي : اما ان تكون معرفة الكون والانسان طريقنا الى الايمان، او يكون الايمان طريقنا الى معرفة الكون والانسان. فمن اية واحدة منها يبدأ عقلنا رحلته المعرفية فانه سينتهي لا محال الى المعرفتين الاخريين، فكأن الثلاثة تشكل معرفة واحدة كما تشكل اضلاع المثلث جسما هندسيًا واحداً.

فحذار من النظرة التجزيئية والتفكيكية التي كثيراً ما نجد انفسا متورطين فيها عند معالجتنا لقضايا الدين والثقافة والعلم، فمثل هذه النظرة الساذجة تحبط اية محاولة لبناء هيكل معرفي متكامل.

بينما النظرة التركيبية الجامعة هي ما نحتاجه في صنع هذه المعرفة، كما ان التفكيك مناقض للتركيب الذي بُني عليه الكون، وهو هدم لا بناء

بينما التركيب بناء لاهدم، وبحكم عمق صلاتنا بالكون، واعتبارنا جزءاً لا يتجزأ منه، لذا لا ينبغي لنا ان نناكف شريعته التركيبية، او نندّ عن سننه في التوجه من الكثرة الى الوحدة، ومن الجزء الى الكل، بل نروض تفكيرنا على هذه السنن في الفهم والادراك، وصياغة المعارف والافكار.

(٤)

فعقل المفكر المسلم ينبغي ان يمتلك بصيرة قادرة على امتصاص الوحدات المعرفية المختلفة واستيعابها وتمثلها وتحويلها الى وحدة كلية واحدة يتدفق بها لسان قلمه.

ففرق كبير بين من يكتب وفي ذهنه صورة مرحلة تاريخية معينة ومحددة لها اشكالياتها الفكرية الخاصة بها، ومن يكتب وهو يستحضر في ذهنه صورة حضارة ايمانية كاملة يريد ان يبتعثها من مرقدها من جديد، وان يحفز حسّها الحضاري البارد المشلول، ويبعث في جسمها الدفء والحركة والشعور بجوهر ذاتها، وعمق وجودها الحاوي لعناصر خلودها.

فالاول مرحلي نسبي يفتقر الى العقل الجمعي الشمولي، تستنزف فكره الجزئيات والمفردات، وتشغله هموم الجزء الجزئي عن الكل الكلي.

بينما الثاني يتحدث بلسان وحدة حضارية كلية مطلقة في عناصرها ونسيجها، فلا يقع في خطأ التجزيئية والتفكيكية اللتين هما علة كل ضحالة في العمل الفكري الايماني او قصور فيه.

« فالنورسي » يرسم في رسائله صورة الايمان في حضارة الاسلام كما تشفتها عيناه الجوالتان في الآفاق وفي الانفس، وقد رفض كل الفواصل

والقواطع بين ما هو كوني وانساني والهي، فالثلاثة – عنده – حلقات متصلة في سلسلة حضارية واحدة لا تتجزأ، تبدأ من ضمير المسلم وتمر بمعارف عقله وروحه وتنتهي في ضمير كل لبنة وحجر في اي من الصروح المشادة في مدن العالم الاسلامي وحواضره كشواهد شاخصة على هذه الحضارة التي يغشاها اليوم ضباب شجي يتنزى دمعاً والماً.

(٥)

لقد ماتت اليوم القوة الابداعية لهذه الحضارة، واصاب روحها الانهاك والتعب، وتخشب جسمها، وتصلبت شرايينها، واعتلّ عقلها وقلبها، واحتل باطنها فراغ زماني ميت مميت، وغدت تعاني نزع الاحتضار، وتكابد سكرات تحولها التدريجي عبْر الزمن من طاقة روحية حافزة تخطف ببريقها الابصار والعقول والافئدة الى كتل مادية مصمتة صماء تنطوي احجارها على بقايا روح حضاري عظيم يكاد يهتف – من قلب كل حجر – بالمسلم ان يتحرر من سجن وجوده الكتلوي الذي آل اليه، ويتحول الى طاقة ايمانية تشع نوراً وهدى كما كان في سابق عهده.

تلك هي صورة وجودنا البائس اليوم، ولا أمل في استنهاضنا من جديد لنستأنف دورة حضارية جديدة ما لم يقيض الله لنا المفكر الفذّ القادر بما يمتلك من نفاذ البصيرة على الايغال في عمقنا التاريخي، والامساك باللحظة التاريخية القاتلة التي قذفت بنا خارج التاريخ والزمن.

ففي هذه اللحظة النكدة يكمن سرّ سقوطنا وانهيارنا، لانها لحظة الانفصام في عقولنا بين المعرفة الالهية والمعرفة الانسانية والمعرفة بالكون والطبيعة. فتحريك النزوع الحضاري الهاجع في «لا واعية» الامة، يوجب

على المفكرين في هذا العصر ايجاد الترابط الذهني بين المشيئة الكونية والانسانية من جهة. والمشيئة الالهية المهيمنة على كل مشيئة سواها من جهة اخرى.

(٦)

وعندما نقرأ « النورسي » فاننا سنصاب بالذهول لقدرته الغريبة على عرض تراكيبه الفكرية الجامعة بين ما هو الهي وانساني وكوني في ايجاز غير مخل، ودون ان يعرض نفسه للاستلاب الكوني او الانساني، او الغياب – لحظة واحدة – عن الالهي.

واليك هذا النموذج الذي يعطيك ملمحا عن فكر « النورسي » الجمعي والشمولي. فيقول مستهلاً كلامه بقوله تعالى:

﴿ سَبِّحْ اِسْمَ رَبِّكَ الاَعلى ✿ اَلذّى خَلَقَ فَسَوّى ✿ وَالّذى قَدَّرَ فهدى ﴾

هذه الآيات الكريمة ترشدنا الى أن جميع الأشياء ولا سيما الأحياء تظهر الى الوجود وكأنها خرجت من قالب مصمَّم تصميماً حكيماً يَهَبُ لكلّ شئٍ مقداراً منتظماً وصورةً بديعة يشفّان عن حكمة واضحة. فنرى في الجسم خطوطاً متعرجة، وانحناءات وانعطافات تنشأ عنها فوائد شتى للجسم، ومنافع عديدة تسهل له أمر أداء وظيفته التي خلق من أجلها على أتم وجه.

فالموجود له صورة معنوية في علم الله تمثل مقدراته الحياتية، وهي تلازم الصورة المادية وتنتقل معها في مراحل نموها، ثم تتبدل تلك الصورة والمقادير في مسيرة حياته تبدلاً يلائم الحكمة في خلقه وينسجم كلياً مع

المصالح المركبة عليه، مما يدل بالبداهة على ان صور تلك الاجسام ومقاديرها تُفصَّل وتُقدَّر تقديراً معيناً في دائرة القدر الإلهي، الجليل الحكيم ذي الكمال، وتُنظَّم تلك الصور وتُنسَّق بيد القدرة الإلهية وتمنحها الوجود المعيّن المقدّر.

فتلك الموجودات غير المحدودة تدل على الواجب الوجود، وتشهد بألسنةٍ لا تحد على وحدانيته وكمال قدرته.

تأمّل فيما يحويه جسمك واعضاؤك أيها الانسان من حدود متعرجة والتواءات دقيقة.. وتأمل في فوائدها ونتائج خدماتها وشاهد كمال القدرة في كمال الحكمة[1].

(٧)

واذا كان الانسان المسلم – لعقمه الروحي – يُقْذَفُ به خارج الزمان او خارج التاريخ الاّ انه مازال عنصراً كونياً يمكن حين تحين لحظة خصبه ان يخرق الزمان والتاريخ ويعود ليحتلّ مكانه المهجور فيهما، ويلغي بذلك الحد الفاصل بينه وبين ان يكون جزءاً من نبض الزمان وخفق التاريخ.

فالرعب من انعدام وزنه الزمني والتاريخي يشكل واحداً من اكثر حوافز روحه لكي ينفذ من قمقم الفراغ العدمي الحبوس فيه، ويندفع منه لكي يجد نفسه تصب من جديد في نهر التاريخ الذي تصاب الشعوب والامم والحضارات بالموت حين يصيبها العقم ويقذف بها خارجه.

فالمعرفة بالانسان كتاريخ حركي وكوجود ظاهره وباطنه في حالة استحالة وتحول دائمين يؤكد وجود رابط يربطه بدينامية الكون وحركته لانه جزء منه، فأي توقف او جمود على حال واحدة يعني التوقف عن

١ – الكلمات ٧٩٤

الصيرورة التي من خلالها يكتشف الانسان كوامن اعماقه، وخفايا ذاته، للنهوض نحو الاجمل من الحياة، والاعمق من الفكر، والاطهر من السلوك غير انه في صيرورته هذه لا بد من ان يعرف القوة والضعف، والسعة والضيق، والامتداد والانكفاء، ليزداد بصره حدة بنقائض النفس وما تحتويه من اضداد، فيكون اقدر على سياستها والاخذ بخطامها حين تريد الجموح والتمرد.

(اعلم! ان ميدان اشتغال الانسان، ومساير جولان الهمة، اوسع من ان يحاط به. فقد يجول في ذرة، ويسبح في قطرة، وينحبس في نقطة، مع انه قد يضع العالَم نصب عينيه، وقد يدخل الكائنات في عقله حتى يتطاول الى رؤية الواجب الوجود ومشاهدته. فقد يكون الانسانُ اصغر من ذرة، وقد يصير اكبرَ من السموات، فيدخُلُ في القطرة مع انه يدخل فيه الفِطرةُ بانواعها واركانها)[٢]..

(٨)

فالانسان هو الكائن الوحيد في هذا العالم الذي يمكن ان يأتي «باللامتوقع» والخارق من الافكار والافعال التي يعجز «قانون السببية» عن تفسيرها، فالسببية يمكن ان تطال جسمه الفيزيائي وتخصصه لقوانينها وسننها غير انها عاجزة عن مطاولة كيانه الباطني، فباطن الانسان هو عالمه الحقيقي الذي يستعصي على فهم السببية، وهو قوة خفية تستمد محركات وجودها وديمومة حياتها من منطقة خارج الكون ووراء الطبيعة، وهذه القوة هي التي تمدُّ الانبياء بالافكار التي يمكن تحويلها الى افعال، وقد تأتي هذه الافكار والافعال وليس بينها وبين الاسباب نسب من قريب او بعيد.

٢- المثنوى العربى النورى ١٨٨

صحيح ان اكتشاف قوانين السببية و الجاذبية فتح عظيم من فتوحات العلم، حيث استطاع العلماء باعتمادها في البحوث والتجارب حلّ الكثير من الالغاز الكونية والحياتية، الا انه ينبغي ان نعترف بان « السببية والجاذبية » تحولتا مع الزمن الى حجر عقلي ووجداني حدّد كثيراً من انطلاقات الفكر والروح في مجالات الفكر الديني والروحي، وبكل ما يتعلق بالانسان ككيان الهي صيروري تعجز كل قوانين الطبيعة ان تطاله او تفسره.

فصرامة السببية وقوة ضغوطها على العقل تعطل – الى حد ما – قوى الانسان الشعورية والحدسية عن الاندفاع – في اقدس لحظات تنويرها وتألقها – من النهائي المحسوس الى اللانهائي المحجوب، ومن النسبي المحسوب الى المطلق الذي لا يحده حساب في شؤونه الفكرية والعقيدية، فتنغلق بذلك منافذ التلقي والاستقبال لما يلقيه الحدس والشعور في روعه من الحقائق التي كثيراً ما يعجز العقل السببي عن ادراكها بعد طول معاناة ومكابدة. وقد ادّى طغيان « السببية » وهيمنة مناهجها على عقول غالبية المفكرين اليوم الى نوع من التبلد الوجداني عند الانسان، وعمل على حصره في دائرة حسية ضيقة مغلقة لا يستطيع خرقها الاّ اصحاب النفوس القوية المصطفاة.

اما النفوس المترددة والوجلة فانها تأوي الى عش « السببية » باستكانة غريبة لانها عاجزة عن التحليق بعيداً عنها، وهذا هو سبب ما نشاهده من ندرة الفتوحات الايمانية العظيمة عند غالبية السببيين من مفكري الغرب وعلمائه، وما نلمسه من انطماس البصيرة النقية لديهم حتى لنكاد نشعر بان هذه البصيرة قد دُفع بها عن عمد الى ضلال غاية في البعد عن الايمان بما وراء السببية.

وها هو « النورسي » يحاكم « العقل السببي » وينقده نقداً لاذعاً فيقول:

(إن لم يُسند خلق كل شئ الى الواحد الاحد القدير ذي الجلال، وأسند الى الاسباب المادية، يلزم عندئذ ان يكون لاغلب عناصر العالم واسبابه دخلٌ وتأثير في وجود كل ذي حياة.

والحال ان اجتماع الاسباب المتضادّة والمتباينة فيما بينها، بانتظام تام، وبميزان دقيق وباتفاق كامل في جسم مخلوق صغير – كالذباب مثلاً – هو محال ظاهر الى حد يرفضه من له عقل بمقدار جناح ذبابة، ويُردّه قائلاً: هذا محال.. هذا باطل.. هذا غير ممكن..!

ذلك لان جسم الذباب الصغير ذو علاقة مع اغلب عناصر الكائنات، ومع مظاهرها واسبابها المادية، بل هو خلاصة مستخلصة منها، فان لم يُسند ايجادُه الى القدرة الإلهية المطلقة، يلزم ان تكون تلك الاسباب المادية حاضرة ومحتشدة جنبَ ذلك الجسم مباشرة عند ايجاده، بل يلزم ان تدخل في جسمه الضئيل، بل يجب دخولها في حجيرة العين التي تمثل نموذج الجسم، ذلك لان الاسباب ان كانت مادية يلزم ان تكون قرب المسبَّب وداخلة فيه، وعندئذٍ يقتضي قبول دخول جميع العناصر في جميع اركان العالم مع طبائعها المتباينة في ذلك المسبّب دخولاً مادياً، وعملها في تلك الحجيرة المتناهية في الصغر بمهارة واتقان! أفلا يخجل ويستحي من هذا القول حتى اشد السوفسطائيين بلاهةً؟)[٣].

(٩)

واود ان انبه هنا الى ان نقد « النورسي » منصب بالاساس على العقل السببي الذي ينسب للاسباب بعض خصائص الربوبية في الخلق والايجاد

٣ – اللمعات ٢٧٠

عن عمد او عن غير عمد. اما السببية نفسها فهي عنده الحصن الذي يحصن الكون، ويشدّه الى نفسه، ويمنعه من التفكك والانهيار، وهي – اي السببية – عمل الهي اعجازي ينبض بذلك الايقاع الاتي من وراء الكون والذي يندرج في ايقاعه كل الوجود.

فالايمان لا يمنع المؤمن من اعتماد السببية في شؤونه الحياتية، الا ان اعتمادها لا يمنعه كذلك من نفاذ رؤاه الايمانية من قفص السببية واختراق جدرانها الصلبة نحو ذلك المدى الممتد في الابد اللامحدود والذي نسمع رنين ايقاعه في جنبات الروح والوجدان حيث تقصر السببية عنه وتنكفئ دونه.

فالمؤمن قبالة هذا العالم الابدي اللامحدود يشعر شعوراً صادقا بانه ازاء عالم قد استنهضته الارادة الالهية ليتشكل ويقوم من اجله استجابة لتضرعاته الفطرية سواء بلسان الحال او المقال – كما يقول النورسي – وعزاءاً وتأنيساً له عن تلك الميتة التي لا بد منها لكل كائن حي في هذا العالم قبل انتقاله الى عالم الوجود من غير عدم، ووطن الحياة من غير موت.

و«النورسي» لا يرى في عالم «الشهادة» الكثيف معضلة ما تُفقد بصيرته الروحية قدرتها على النفاذ الى « عالم الغيب » وراء هذا الكون، فعالم الشهادة يشكل في حسه لوحة اعجازية خارقة في اعجازيتها، رسمتها وابدعت فيها يد المبدع البارئ القدير جل جلاله، غير انه – اي عالم الشهادة – يظل رمزاً وايماءً وظلاً يدل بشبحيته وظليته على عالم اجمل واقدس واروع وهو في الوقت نفسه ابدي لانهائي، ينتظر عيون المؤمنين الوالهة الشغوفة بالجمال.

فبقدر ما في نفوسنا من توق وحنين فطري الى مشاهدة الجمال والانس به، والانجذاب اليه، فان الجمال نفسه يبادلناهذا التوق والشوق، ويطلب لنفسه صفوة من المشاهدين الذواقين الذين يحسنون المشاهدة، ويتأنقون في حضرته، ويطهرون احاسيسهم ويهذبونها بين يديه، وانه ليفرح بانشداه ارواحهم ورعشة افئدتهم بازاء ما يلمسونه من فخامة جماله، وعظمة معناه، ويدعوهم لكي يصغوا الى نغم الوانه واضوائه، ونبل لغته المعمارية التي نمقتها الفخامة، ودبجتها العبقرية. وفي تعمقه في سرّ الجمال والجميل يكتشف « النورسي » سرّ الخلود الموعود به المؤمنون في عالم الغيب، فيلخص هذا السر بهذه العبارة الوجيزة:

« ابدية الجمال تستلزم أبدية المحب المشتاق ». ثم يمضى مفسراً هذا الكلام فيقول:

(من الحقائق المستمرة الثابتة: ان كل ذي جمال فائق يحب أن يشاهد جماله بنظره، وبنظر غيره؛ وينظر الى محاسنه بالذات، وبالواسطة؛ ويشتاق الى مرآةٍ فيها جلوة جماله المحبوب، والى مشتاق فيه مقاييس درجات حسنه المرغوب. فالحسن والجمال يقتضيان الشهود والاشهاد؛ وهما يقتضيان وجود مستحسنين متنزهين في مناظرهما، ووجود مشتاقين متحيرين في لطائفهما. ثم لأن الجمال سرمدي، يقتضي أبدية المستحسن المتحير؛ اذ الجمال الدائم الكامل لايرضى بالمشتاق الزائل الآفل؛ اذ بسرّ أن الشخص المقيد بنفسه، له نوع عداوة لما لايصل اليه فهمهُ او يدهُ، ولمن يردهَ او يطرده من دائرة حضوره، فيحتمل حينئذ أن يقابل هذا الشخص ذلك الجمال – الذي يستحق أن يقابل بمحبة بلا نهاية، بشوق بلا غاية واستحسان بلا حد – بعداوة وحقد وانكار.

الحاصل: ان هذا العالم كما يستلزم صانعه بالقطع واليقين، كذلك يستلزم صانعهُ الآخرةَ بلا شك ولاريب)[٤]..

(١٠)

وانه لمن المؤسف حقاً ان نرى « النفس المؤمنة » وقد حيل بينها وبين النضوج الايماني عبر ذلك التوحد بين ما هو كوني وانساني والهي، فمازال العنصر الذهني المعول عليه في صياغة هذا التركيب التوحيدي في نظرية معرفية واحدة، عنصراً منهوك القوى الى حد العجز ومستنزف الطاقات في جزئيات الايمان وهوامشه، الامر الذي يجعل المسلم العادي غير متحمس لخوض مثل هذه التجربة الايمانية التي لم يسبق له ان خاضها.

لذلك – واحساسا من النورسي بواجبه الديني – الزم نفسه بمساعدة اولئك الذين لم تستيقظ بعد قواهم الايمانية ولم تبلغ درجة الادراك المعرفي المتوحد، وجعل يحثهم في رسائله على اقتحام عالم المعرفة الايمانية بنفوس واثقة غير هيابة، وعمل على تمهيد الطريق امامهم للجهاد من اجل هذا الادراك الذي يراد الحيلولة بينهم وبينه بشتى وسائل التضليل والتزييف.

فجهاد المسلم من اجل الوصول الى ما ينبغي له من هذا الادراك المعرفي – مقدم عند النورسي – على جهاده ضد ما يكره من الكفر والفسوق والعصيان، لان الجهاد ضد ما يكره قبل استكمال جهاده من اجل ما يحب عجالة لا يكتب لها النجاح في غالب الاحيان، وربما تفجؤه في هذه العجالة وفي شدة رغبته بالقفز من فوق كل مراحل الطريق عوارض التعب، وقد تدهمه الشيخوخة والهرم قبل بلوغه سن الفتوة والشباب، ففي

٤ – المثنوى العربى النورى ٩٢

حميًا تسرعه يفقد الكثير من قواه، ويستنزف قدراته الايمانية قبل وصوله الى خاتمة الشوط، فيكون بذلك هو المنبتّ الذي لاظهراً ابقى ولا ارضاً قطع كما وصفه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

وعن هذا الايمان الذي تدعمه المعرفة، وعن المعرفة التي يدعمها الايمان، يحدثنا احد طلاب النور قائلاً : «كنت احسّ فراغاً كبيراً في نفسي، وفي روحي. وبينما (كنت ابحث عن كتاب لأقرأه وجدت «رسائل النور» التي ما إن قرأتها حتى علمت بانني لن استطيع بعد مفارقتها، اذ احسست بانها هي التي تسدّ هذه الحاجة القلبية لدي، لانني وجدت فيها البراهين والادلة العقلية والايمانية المنقذة من الشبهات» الى ان يقول : «وادركت من هذه الحقائق ان رسائل النور كتبت لانسان هذا العصر» ثم يمضي فيقول : « فقد احسست ان ايماني يقوى كلما قرأتها..». ثم تتجسم في ناظريه بشاعة الكفر ومأساة الالحاد فيقول: « لوكان من عادة القلب ان يتقطع في موقف الحزن والاسى، لكان من المفروض ان يتمزق القلب الى عدد ذراته امام خبر عن شاب سقط في هاوية الالحاد)[٥].

(١١)

والانسان لا ينزلق الى هاوية الالحاد والعدمية الا عندما تمرض كينونته – لسبب ما – ويجف فيها ينبوع الشعور الوجداني اليقيني بما وراء عالم الحس بينما ينبعث في نفسه حسٌّ كثيف وغليظ، يعمل على كبح كل تطلع الى ماوراء هذا العالم، ويخنق صوت كل نازع مقام فيه الى ما فوق «الكونية» فلا يلبث حتى يرى نفسه وقد حُشر في زاوية النظر الميتة التي يفقد عندها وضوح الرؤية، وصفاء المشاهدة. فيصاب بالدوار الذهني.

٥ – الشعاعات ٥٩٠ – ٥٩٦

ويخفق في فهم نفسه، والتعرف على سر وجوده، وادراك المعنى والمغزى لهذا الوجود الذي يحسبه آيلاً للموت والفناء، ويعجز عن رصد ذلك الفيض الهائل من المعاني الذي يتدفق من عالم ماوراء الكون ليمنح كل كائن المعنى الذي يفتقر في وجوده اليه، فالمعنى يملأ الكون ويحكم الوجود بأسره، اما اللامعنى فلا يوجد الا في مخيلات مريضة مهووسة، تتخذه مبرراً للانعتاق من المسؤوليات المفترضة عليها تجاه النفس والكون والحياة، وتجاه الله سبحانه وتعالى خالق النفس والكون والحياة.

ولئن كان الرعب من الموت والفناء يشكل حافزاً ايمانياً عند البعض يدفعهم للبحث عن كل ما يصلهم باسباب الخلود والبقاء، الا انه يشكل لدى البعض الاخر حافزاً الحادياً عدمياً، ظناً منهم ان الموت هوالنهاية والخاتمة التي تختم بها الحياة. فعدم استيعابهم لسر الموت من حيث كونه الأغفاءة القصيرة التي تليها الصحوة الكبرى، اوقفهم في خطأ الاعتقاد بانهم يحيون ويموتون وما يهلكهم الا الدهر، وفي الوقت نفسه يشيحون بوجوههم عن « الدين » الذي يملك الجواب عن كل ما يجول في خواطرهم من اشكاليات ومعضلات.

فهذه الحال المأساوية التي يعيشها الانسان الملحد، بقدر ما تثير من الاستنكار تثير مثله من الرثاء والاشفاق كما اشار الى ذلك «طالب النور» في كلامه آنف الذكر.

(١٢)

فالتامل فكرياً ووجدانياً مع التركيبة النفسية للافراد والامم والشعوب، يوجب بدءاً ذي بدء الامساك بالاصول الحضارية العميقة التي ينتمون

اليها، والايغال في تاريخهم النفسي للتعرف على الجذر العقائدي الذي يغذو شجرة العقيدة لديهم، ويحفظها من الزوال والاندثار النهائي، فهذه المعرفة تتيح لصاحبها فرصة اختيار اللغة الدعوية التي يمكن مخاطبتهم بها، وجعلهم يصغون اليه ويفهمون عنه.

فالتركيبة التاريخية للمسلم مدينة للاسلام في نسيجها النفسي والفكري، ولاسيما لمفهومه عن « الزمن » الذي يتعامل معه « القرآن » كوحدة واحدة في آزاله وآباده، فما كان منه، وما هو كائن، وما سيكون، وحدة واحدة حاضرة في علم الله تعالى.

فالقرآن الكريم يلقي بثقله الذي تنهدُّ له الجبال الرواسي في سكون الزمن فاذا به يضطرب ويموج، ويمور موراً، وتصطفق شطئانه، وتتسع وتمتد بحوره لتتلاقى آزاله وآباده، في وحدة واحدة ملتحمة لا تعرف القواطع والفواصل.

ومن هنا فأن القرآن يتحدث عما كان وكأنه اليوم يكون، وعما هو كائن وكأنه سيكون، وعما سيكون وكأنه اليوم كان، وعن عالمي الغيب والشهادة وكأن الغيب شهود، والشهود غيب، وكأن العالمين عالم واحد متوحد.

ولهذا السبب نرى الخط المعرفي للنورسي يرفض الثنائية بين ما هو دنيوي، وما هو اخروي.

فالدنيوية هي الباب الذي لا مناص من الدخول منه الى الاخرة التي لا يحجزها عنها الا حاجز وهمي واعتباري، بينما تشكل الاخرة محطتنا الاخيرة في رحلتنا الاستكشافية لمجاهيل العالمين المعجزين معاً.

فالمسلم القرآني المنبت مطلوب منه اكتناف العالمين معاً والامتداد المعرفي في الوجودين كليهما، فاذا ما اشرقت رؤاه الايمانية فوق كل ماهو نسبي ومحدود وفان مما يكتنف حياته الدنيوية، فانها قادرة بنورانيتها القرآنية منح كل فانٍ ومحدود ونسبي من الاشياء معنى من معاني الاطلاق والخلود واللامحدود، فتتحول – بهذا الايمان – دنيا المسلم الى جنة مصغرة قبل مغادرتها الى جنته الكبرى، والى هذا يشير « النورسي » حيث يقول:

« اعلم! ان في النفس امراً لطيفاً كدرهم من ورق رقيق. اظن انه مرصاد الابد. اذ ما يمسه شئ الا ويعطيه حكم الابد ويموّهه بوهم الابدية. واذا استعمله الهوى والهوس، صار آلة تجلب احجار الآخرة واساساتها الى الدنيا، فيبنى قصرها عليها، فيأكل اثمار الآخرة بلا نضج في الدنيا الفانية »(٦).

فالنفس الانسانية مفطورة على حب البقاء والخلود، فتطلبه وتسعى اليه حثيثاً، حتى انها لتتوق وتشتاق الى ما تتوهم انه يملك معنى من معاني الدوام، وسمة من سمات البقاء فيما تراه وتلتذ به من لذّات الدنيا واشيائها، والى هذه الحقيقة الفطرية يشير « النورسي » فيقول:

« اعلم! ان اشد ما تطلبه النفس الناطقة البقاء والدوامَ، حتى لو لم تنخدع بتوهم الدوام ما التذت بشئ »(٧).

(١٣)

فاذا كان عالم الغيب ينطوي على البقاء والدوام الذي بشرت به الاديان، فان لعالم الشهادة بقاءه ودوامه الظلي والرمزي، بحكم ذلك

٦ – المثنوي العربي النوري ٣٧٨
٧ – المثنوى العربى النورى ٣٠٢

الارتباط والتداخل بين العالمين، فمرآة الابد الكبرى تعكس بعضاً من صور الجمال والجلال على كائنات « عالم الشهادة » وتسكب فوقها بعض اضوائه والوانه، وهذا هوسر تعلق الانسان بالجميل والجمال، لان الجمال يرمز بجماله الى معنى من معاني الجمال الابدي الاقدس.

« والنورسي » يرى ان الغلبة دائماً للبقاء على الفناء، فالاشياء يغلب عليها طابع البقاء حتى وهي تفنى وتزول، بل يذهب الى اكثر من ذلك فيقرر ان الفناء صوري واعتباري، فيقول موضحاً ذلك:

« ومن الدليل على ان الاشياء للبقاء لا للفناء، بل الفناء الصوري تمام الوظيفة وترخيص له، أن الفاني يفنى بوجه ويبقى بوجوهٍ غير محصورة!.. مثلا: انظر من كلمات القدرة الى هذه الزهرة التي تنظر الينا في وقت قصير، ثم تفنى؛ تراها كالكلمة التي تزول لكن تودع باذن الله في الآذان الوف تماثيلها، وفي العقول – بعدد العقول معانيها؛ اذ هي وقت تمام الوظيفة تُبقي وتودع في حافظتنا، وفي حافظة كل مَن رآها في الشهادة، وفي بذورها في الغيب صورها ومعانيها؛ حتى كأن حافظة كلٍّ مَن نظر اليها وكل بذيراتها (فوطوغرافات) لحفظ زينة صورها، ومنازل لبقائها. وقس عليها ما فوقها وما فوق ما فوقها من ذوي الارواح الباقية »(٨).

فالنورسي هنا انما يريد ان يعمق فينا الشعور بالمدى اللانهائي الذي يحتويه « عالم الغيب » وان يستثير في ذات كل انسان نازع الامتداد عبر مسافات الايمان السامقة الانارة، والهادية الى الخلود المنتظر في ذلك العالم الجميل، وهو يريد منا ان نتحرر من ضغوط الحاضر الحسي على آفاقنا الفكرية والروحية باستجاشة ذلك التيار الخفي لارادة البقاء في دواخلنا وتغذيته على الدوام بينابيع الوجدان المفعم بحب الابد.

٨ – المثنوى العربى النورى ٩٦

واذا كان « الانسان » محكوماً ان يعيش بين غيبين، غيب ما مضى من زمان وغيب ما هو آتٍ منه، لذا فليس من الحكمة في شئ ان ينكفئ ويتكرر داخل البرهة الزمنية التي يحياها، فيستنزفه الحاضر ويمتص ماء وجوده كله، بل عليه ان يستجمع كل قواه لكي يكون قادراً على النفاذ من خلال حاضره والغوص في غيب التاريخ الذي مضى، واستشراف غيب التاريخ الذي سيأتي، لان «الحاضر» يبقى باهتاً وسطحياً وهشاً ومعرضًا للتفكك والانهيار مالم تسنده مداميك الماضي من جهة، ومالم يغلب على جوهره نازع الامتداد في الآتي من الزمان من جهة اخرى.

فالتاريخ – بابعاده الثلاثة – هو انبل ما يمكن ان يرتديه « انا » الانسان من رداء لحفظ صورة وجوده من الاندثار والزوال، وهو صوت الروح الانساني المعبر عن قواه الخفية التي تملأ فضاءات الزمن بطاقاتها الجبارة واراداتها المتفجرة بالاحداث والوقائع.

فما بين « انا » الانسان، و« انا » الزمان أوالتاريخ اواصر قوية من المعرفة تشد احاسيس احدهما الى الاخر، وتصل ما بين نبضيهما، وتسمع نداء احدهما للآخر، فلكي يعي الانسان وجوده، ويكتشف جواهر دواخله، لا بد له من ان يلقي بنفسه في اتون « فعل تاريخي » يمنحه الامتداد في التاريخ، ويسبغ عليه ثوب الخلود الظلي والشبحي على هذه الارض.

وبالمقابل فان « بصيرة التاريخ » ترى « الانسان » القوة القادرة على تحريك ساكن اي زمان من ازمنته، ومده بالطاقة التي تديم حركته، وتكفل له دوران عجلته، فلا تاريخ بلا انسان، ولا انسان بلا تاريخ.

وحين نستقرئ التاريخ ونوغل في اعماقه، نخلص الى نتيجة مؤدّاها ان احداثه ووقائعه ليست من صنع الانسان وحده؛ « فيد الانسان، ويد القدر الالهي، موجودتان معاً في كل حادثة » كما يقول النورسي..[٩].

فالفعل الانساني في الحدث التاريخي هو القناع الذي يخفي تحته فعل « القدر » و « فعل الكون » معاً.

فارادة الانسان لا تنتقل من طور القوة داخل النفس الى طور الفعل التاريخي خارج النفس الا اذا انبثقت من احشاء التحدي لارادات بشرية اخر مضادة ومناوئة، واستطاعت التغلب عليها جميعاً والنفاذ من بينها منتصرة، بشرط الا تصطدم بارادة « الكون » المتمثلة بسننه ونواميسه لانها غالبة لا محال، وفوق ذلك كله لابد ان تكون على وفاق مع مشيئة القدر، التي هي فوق كل مشيئة.

ففي التاريخ – وبحسب نظرية المعرفة عند « النورسي » – يلتقي « الالهي والكوني والانساني » كما هو لقاؤهم في كل ما يتعلق بشؤؤن الانسان ومعارفه.

(١٤)

فالعالم المشحون بطاقات الدفع نحو السعة والامتداد عبر فضاءات الزمان والمكان اللانهائيين، يقف بالمقابل منه « عالم النفس » المشحون بطاقات الارادة التي تدفع باتجاه السعة والامتداد عبر التاريخ والزمن.

فالارادة شأنها شأن التفكير والحدس والشعور تشكل في « عالم النفس » ارقى اجزائه، واشرف عناصر مكوناته، وهي مما لا يمكن للتصور

٩ – الملاحق – ملحق قسطموني

ان يحيط بها، ولا لقبضة البحث العلمي المنهجي ان تمسك بها، لتضعها تحت قياسات مساطرها وعدسات مجاهرها، وموازين معادلاتها.

فوليد البصر ليس كوليد البصيرة، وما يَطَالُهُ حسُّنَا ليس كمن يَطَالُ شُعورَنا والمَرئي الذي يقاس ويوزن، ليس كالذي لا قياس له ولا وزن.

فالمعاني العظيمة – غيبية كانت او شهودية – نجد في نفوسنا مأوىً لها ورغم اننا مسكونون بها الا اننا لا ندرك من ابعاد معانيها الا بمقدار ما توحيه لنا اسماؤها.

فالاسماء رموز للمعاني، ومفاتيح لاقفالها، وهي التي تعطي لصور الحقائق الحسية والمعنوية ماهياتها، وتمنحها السمات والملامح التي بها يتم تمايز موجود عن موجود، وحقيقة عن حقيقة.

فالشئ او المعنى الذي لا اسم له يبقى في عُتْمَةِ الإبْهَامِ، فلا هو موجود في اذهاننا ولا هو غير موجود، فهو متأرجح بين الوجود واللاوجود، حتى يتحدد بالاسم الذي يطلق عليه، ولعلَّ الى هذا الاشارة في الاية الكريمة: ﴿ **وعلم آدم الاسماء كلها** . . ﴾(البقرة:٢١) قبل نزوله الى الارض كيما يكتسب المعرفة بصور الموجودات، والقدرة على التفريق بينها، والتعامل مع كل منها بمقتضى ما يوحيه له اسمها من الافكار والمعاني.

فأولى مراتب « المعرفة الكونية » توجب، استشراف المعنى الذي ترمز اليه اسماء الموجودات، عن طريق التجربة والاختبار.

واولى مراتب « المعرفة الالهية » توجب رصد تجليات اسماء الله الحسنى على الكون والانسان والحياة، وكشف فاعليتها وتأثيرها فيها، وفي عالم الاسماء يلتقي كذلك الانسان بالكوني والالهي، واليك ما يقوله « النورسي » في هذا الصدد:

«اعلم : ان السر في تختيم الايات القرآنية بفذلكات متضمنة للاسماء الحسنى كامثال : «آية الملك» او بعين الاسماء كما في كثير من الآيات هو، ان القرآن الحكيم، ببيانه الاعجازي يبسط الاثار للنظر ثم يستخرج منها الاسماء كامثال: ﴿**وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو اهون عليه، وله المثل الاعلى في السموات والارض وهو السميع العليم**﴾(الروم:٢٧).

وكذا ينشر منسوجات صنعه ثم يطويها في الاسماء، وكذا يفصل افاعيله ثم يجملها باسمائه وكأن تلك المخلوقات الفاظ وهذه الاسماء معانيها او ماؤها او نواتها او خلاصتها علماً»(١٠)

(١٥)

انّ «النورسي» منساقًا بهذا الجيشان الروحي الذي يكتنف وجوده كله، والمندفع بقوة من احشاء تطوره الباطني الطويل الامد، والمتدفق من تجاربه الايمانية، ونظريته الشمولية لما هو كوني وانساني والهي، يرى نفسه مدفوعاً بحسٍّ مسؤول نحو «الانسان الضال» المعاني لآلام الاختناق، وعذاب الانسحاق في قعر «أناه» ليأخذ بيده ويساعده على التحرر من سجن نفسه العمياء، وجعله يستعيد انفاس الايمان من جديد، ولا يتركه حتى ترتقي نفسه من كونها نقطة سوداء تستحث ظلام العالم كله كيما يصب فيها الى نقطة مشعة بالنور والضياء يقف الشك ازاءها حائراً صامتاً، بينما يجد اليقين طريقه الى عمق اعماقها، فتصبح بذلك متأهبة لدخول عالم التوحد المعرفي الحصين الذي يتأبى على اي نوع من انواع الجمودات الفكرية والروحية.

١٠ – المثنوى العربى النورى ٣٣٩

وعندما تنتقل « انا » من كونها مركزاً كثيفاً للعماء والظلام الى مركز مشع بالنور والضياء بما تستمده من انوار اسمه تعالى « النور » فانها تصبح مشغوفة بالكشف عن « اللامنظور » من قوانين الحياة والكون والانسان، والسعي لادراك ما لا يدرك منها الاّ بعد الجهد الجهيد، وبذلك يبقى جنين الفكر مربوطًا بحبل سرّة الوجود يغذوه بعوامل الحياة والنماء دون انقطاع.

ومن هنا جاء اطلاق « النورسي » اسم « النور » على رسائله تيمنًا باسمه تعالى « النور » الذي به تومض الحقائق، وتشع الموجودات.

ولما كانت « الحقيقة » – اية حقيقة – هي مزيج من جمال « الحق » ومن « جلاله »... فيها من الجمال انسه ومن الجلال هيبته ورهبته، تعذّر على الانسان ذي الاصل الترابي ان يلتقيها – اي الحقيقة – وجهاً لوجه، او ان يشافَه بها مشافهة مباشرة، والاّ صُعق بجلالها، وذهل عن نفسه بجمالها، فكان لا بد – رحمة بالانسان نفسه – من ان يشار اليها اشارة، ويرمز اليها رمزاً، وان تأتيه محجبة، وتصل اليه مغلفةً بغلاف من الرمزية والخفاء، وترك لعقله ولخياله حرية الاجتهاد في الكشف عما وراء الرمز، والبحث فيما وراء ستار الغموض والخفاء الذي يسترها.

ولعل هذا يؤشر لنا حكمة « المتشابه » من آى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

فكما ان القرآن الكريم فيه المحكم والمتشابه، فكذلك الحديث الشريف فيه المحكم والمتشابه – كما يرى النورسي – ولا سيما تلك الاحاديث التي تشير الى احداث مستقبلية ستقع في امته خاصة وفي العالم عامة، كأحاديث المهدي والدجال ونزول المسيح عليه السلام في آخر الزمان، وكسره للصليب وقتله للخنزير، واشراط الساعة وعلاماتها الى آخر تلك المغيبات.

ولكن عندما يذوي « الفكر الديني »، ويدخل مرحلة المَحْل والجفاف – لاي سبب كان – فان قوته التصورية تخبو كذلك وتذوي، فيعجز عن الايغال في الاشارة والرمز ليكشف حقيقة ما يشيران اليه ويرمزان اليه، فيمسك بتلابيب ظاهر النص، ويقف عند حرفيته لا يريم، فيفوته الفهم، ويخطئه الادراك، فينحسر الفكر ويضيق، ويمنع من الامتداد عميقًا في ظاهر النص وحرفيته، ويتسلل اليه دون قصد منه شئ من الصنمية الحسية الغليظة التي حطمها الاسلام، وتصبح هي القاعدة والمنهج في تفسير النصوص، وتبيان مراميها ومقاصدها.

وقد توجه «النورسي» بالنقد للمنهج الحرفي في تفسير « النص» واستخدم منهجه – ضمن المعرفة الايمانية – في تفسير الكثير من نصوص «الاحاديث المستقبلية» باعتبارها رموزا واشارات الى حقائق كان من المناسب جداً ألاَّيُشافَهَ بها المسلم مباشرة، ولا ان يُواجَهَ بها صراحة، بل ترك لاهل كل زمان حرية إعمال العقل في الفهم عنها، والتعرف على مراميها ومقاصدها.

لان الحجب والرموز التي تستتر فيهما ووراءهما الحقائق وحتى المادية منها، اكثر اغراء، واشد اثارة للانسان، واستفزازاً له، لكي يقبل التحدي، ويعمل ذهنه في خرق الاستار، وفتح المغاليق والكشف عن الحقيقة في جوف الرمز ووراء الستر.

فالنازع الديني، والنازع العلمي، كلاهما ينزعان عن عرقٍ واحد عميق في النفس الانسانية، وهذا العرق هو حب المعرفة، والشغف بغزو المجهول، والتعلق باللامنظور.

فنزوعهما عن عرق واحد – رغم اختلاف سبيليهما – يدفع بهما للالتقاء في خاتمة المطاف مكونين رافداً واحداً يَصُبُّ في بحر « المعرفة الالهية » التي تنتهي اليها المعارف جميعاً.

« فالنورسي » يرى انه سيأتي قريباً ذلك اليوم الذي تتلاحم فيه عوالم المعرفة وينفذ بعضها ببعض مكونة عالماً معرفياً واحداً يخترق بنوره جدران الكون والحياة والانسان، وسيعود « العلم » ليلقي بنفسه المتعبة المرتابة في احضان بيته الروحي المؤمن الذي غادره مجافياً منذ ما يُسمى بعصر التنوير الاوربي، وسيؤوب من رحلته الارتيابية في مجاهيل العالم بذراته ومجراته، برؤية ايمانية اكثر عمقاً، واشد تصديقاً واكثر تواضعاً وخشية: ﴿ **انما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾.

وبعد:

فان كان « النورسي » يرسم هنا الملامح العامة، والخطوط العريضة لنظريته في « المعرفة الايمانية »، الاّ انه لا يزعم لنفسه الكمال فيما جاء به، او الانتهاء في نظريته الى المدى الذى لا يقبل التطوير او الاضافة، لانه يرى ان العقل الانساني لا يمكن ان يقف عند حد من حدود المعرفة ويسعده – وهو في قبره – ان يرى في طلابه وقرائه من يدفعه ذكاؤه لكي يطور نظريته، اويضيف اليها ما يزيدها رصانة وقوة.

ومع ذلك فانه – اي النورسي – لم يقل كل ما عنده لان ما من احد يستطيع ذلك، ففي قعر الصمت شئ ما لا يقوى الكلام على حمله، فلوامع الحقيقة واشراقاتها في هدوات الصمت، وبين الشفاه المطبقة، اقوى ظهوراً، واشد وضوحاً، واكثر انكشافاً، ممَّا لو انفرجت عنها الشفاه لتندرج في العبارات والجمل.

وهو – اي النورسي – يقرّ بانه ليس اكثر من معبر يستحث الاخرين للعبور من فوقه الى الانسان المسلم المنتظر وانه الكشاف والرائد الذي يتقدم الاخرين ليمهد لهم سبيل الوصول اليه، وهو يقول مخاطبًا الانسان الناظر في كلامه:

« يا ناظر!

اظنني أحفر بآثاري المشوّشة عن أمرٍ عظيم بنوع اضطرارٍ مني.

فياليت شعري هل كَشَفتُ.. او سينكشفُ.. او انا وسيلة لتسهيل الطريق لكشّافه الآتي »[١١].

* * *

١١ – المثنوى العربى النورى ٢٣٩

الإيمان والتجديد

يهبط الايمان أولَ ما يهبطُ في قلوب الصفوة الأولى من المؤمنين غضّاً، ندّياً، مشرقاً،متوهج النور، متّقد الجذوة، يُضيءُ جنبات النفس، ويُشيع في الروح الحرارةَ والدفء والحماس والحركة.

فلا غرو أن تنهض – بهذا الايمان – شعوبٌ، و تقوم دولٌ، وتنمو حضارات.

ثم يمضى هذا الايمان عبر الزمن، مارّاً بالأجيال والأعصار، وهو كلّما أوغل في سيره، وأبعدَ في ترحاله.. أوهنته الأيام، وأضعفته السنون، ومصّت رواءه الدهور، وأيبست نداوته سموم العصور؛ فيشيخ ويهرم، حتى لا يكاد يبقى من ماء حياته و توهج نوره، وإشراق شمسه.. إلاّ ذبالاتٌ واهنة شاحبة، ترتعش في ظلمات الأفئدة – بين فترة وأخرى – كما ترتعش ذبالة النفس المدنفة في صحوة من صحوات الموت قبيل إنطفاءتها الأخيرة.

وعندما يصل الايمان هذه المرحلة الخطرة والحرجة في حياة الشعوب والدول، والحضارات؛ فما أسرع ما تتهاوى و تنهار و تنهدم و تتحول الى ركامات بشرية بائسة تحيا على هامش الحياة، وخارج تأريخ العظمة والمجد والبطولة.

ولكن.. لماذا يشيخ الايمان ويهرم؟ وكيف يصل في الإنسان حافّة الخطر، ونقطة الحرج؟!

يحدث هذا عندما يَحقُرُ الانسان نفسه العظيمة، ويدفع بوجوده الواسع الممتد نحو التصاغر والتضاؤل والانكفاء، ويدس آماله البعيدة الواسعة في قمقم «الدنيا» ويغلق عليه حدودَ حياته التي لا حدود لها، ويطبق دائرة روحه المفتوحة والمنداحة بين شواطئ الأزل والأبد، على زمانه ومكانه المحدودين الضيقين، فتتعاظم – عندئذ – الدنيا في حس المؤمن ووجدانه، وتتضخم صورتها في نفسه وعقله، فتصبح – بعد هذا – اكبر همّه، ومبلغ علمه. بينما تغيب «الآخرة» عن ذهنه، وتحتجب عن خياله، وتتوارى عن إهتماماته، ولا تعود تَشْغَلُ من نفسه إلاّ مساحة صغيرة لا تكاد تبين أو تظهر.

والإنسان أبديٌّ بفطرته، أي أنه مخلوق للأبد والخلود، ولولا ما يمكن أن يسبق الى وهم المؤمن شئ من معاني الألوهية إذا ظلّ حيّاً ولم يصبه الموت في دنياه.. لما كتب الله تعالى عليه الموت.

وفي الحديث القدسي الذى رواه البخارى عن ابى هريرة رضى الله عنه ما يومئ الى ذلك؛ يقول الله تعالى:(... وما ترددّتُ في شئ أنا فاعله ترددّى في قبض نَفْسِ المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مُساءَته) .

فهو – تعالى – يُقهره بالموت ويعُلمه أن الموت والحياة بيد الله وحده، وأنّ أبدية الانسان ليست ذاتية تنبع من ذاته، وإنما هي عطاء كريم من عطاءات الله، وأنه – تعالى – قادر على سلبه هذا العطاء متى يريد وكيف يشاء.

فالآخرة – إذن – هي الامتداد الطبيعي للدنيا، وقد خلقها الله ومنحها منحة الخلود والأبد ليستأنف فيها الانسان – مؤمناً أو كافراً – حياته الأبدية في الجنة أو النار.

والعاقل من البشر، هو الذي يعمل لدنياه بقدر مكوثه فيها، ويعمل لآخرته بقدر ما سيمكث فيها أيضاً.. ومن السخف والحماقة أن تنسينا أعمارنا المحدودة القصيرة على هذه الأرض – مهما طالت واستطالت، وخلت من المتاعب والمنغصات – ما ينتظرنا من حياة أخروية أبدية لا نفاد لها ولا إنتهاء.

وعندما ينسى المؤمنون هذه الحقيقة الايمانية أو يتناسونها، وتغيب عن أفكارهم وتحتجب عن بصائرهم.. يبدأ الايمان في قلوبهم يضعف ويهزل ويضمر، ويغدو – بالتالي – عاجزاً عن الصمود إزاء مغريات الدنيا ومفاتنها وسرعان ما يتساقط هؤلاء المؤمنون في شباكها، ويغوصون في أوحالها، ويخطبون ودّها، ويتملقون لها، ويتصرفون فيها تصرف الدنيويين المنغمسين في رمال سرابها إلى أذقانهم.

وهنا يكون الايمان والمؤمنون في خطر عظيم ومأزق جسيم.. ينتظران مجدّداً ينقذ الايمان ويقرع أجراس الخطر في أسماع المؤمنين.

ومما يشير الى هذا – أى حاجة الايمان والمؤمنين الى مجدد بين زمان و زمان ما[١٥] بما معناه:

(إن الله تعالى يَبعث لهذه الامة على رأس كل مئة سنة مَن يجدّد لها دينها).

والمجدد الحق ينبغي أن يكون على علم:

من أين يمكن للايمان أن يُؤتى، وكيف؟ ومن أى ثغرة يُؤتى المؤمنون؟

وينجح المجدد في أداء مهمته على قدر استيعابه للاسلام، و تشربه بروح القرآن، وتفهّمه لأسرار الايمان مع إحتوائه لروح عصره واستبطانه لعقول

(١٥) رواه ابو داود والحاكم والبيهقي

الناس ونفوسهم، وما يدور فيها من أفكار وما يشغلها من مشاكل ومعضلات!

لذا لزم أن يكون لكل عصر و زمان «مجدّده» الذي ينهض بأعباء عصره، ويتحمل أثقال زمانه، ويقوم بتكاليف رسالته بمسؤولية عالية، وإحساس حاد بالواجب، وشعور - كشعور الأنبياء - بقدسية الأمانة التي حُمّلَهَا من دون الناس.

والمجددون - وإن كان محور عملهم واحداً وهو تجديد الايمان - إلاّ أنهم مع ذلك مختلفون فكراً وأسلوباً ومشرباً، فلا يمكن لأيٍّ منهم أن يُغني عن الآخر، أو يقوم مقامه.

فهم ليسوا سواءً، فالمجدد الذي يَطْلُعُ في خريف الايمان، هو غير ذلك الذي يأتي في شتائه، والذي يَقْدُمُ في عصر خمود الايمان وهبوط حرارته، هو غير ذلك الذي ينجم في عصور الشك والهدم الذي يتناول بمعاوله أصول الإيمان وجذوره.

ويبرز في تاريخ التجديد في الأسلام عمالقة إيمانيون، وعباقرة موهوبون، أعطوا الايمان رحيق أفكارهم وأرواحهم، وأغنوه برؤاهم، وعمّقوه في القلوب بمعارفهم وكشفوا للمؤمنين عن تجاربهم الايمانية، ومعاناتهم الروحية في تزكية النفس، وتطهيرها من علائقها الدنيوية الحاجبة عن الآخرة - ما يعبِّدُ - أمام السالكين، الطريق الى الله، ويبَصِّرُهم بوهادها وشعابها وحزونها وسهولها.

فرجال كالخليفة الراشد عمر بن عبدالعزير، والامام الغزالي، والشيخ الكيلاني، والامام الرباني، ومولانا جلال الدين الرومي صاحب المثنوي

الشهير. وغيرهم، هم درٌ وضاءةٌ مشعة في تاج الايمان والاسلام، لا يمكن للزمن ان يطمس وضاءتها او يكدر صفاءها.

وصاحب « رسائل النور » بديع الزمان سعيد النورسي، قد عرف هؤلاء الأفذاذ، وقرأ لهم ولأمثالهم من رجال الايمان، وذاق مذاقهم، ونهل من مناهلهم، وأفاد من تجاربهم، ولكنَ عصره غير عصرهم، وزمانه غيرِ زمانهم، وآفات الايمان في عصره غير آفاته في عصورهم، والمآتى التي أُتي منها الايمان في عصره، غير المآتي التي أُتي منها في عصورهم، حتى إنه ليقول لأحد تلامذته، مشيراً الى إختلاف المعالجة من عصر الى عصر:-

(لو عشتُ زمنَ الرومي لكتبتُ المثنوي، ولو عاش الرومي في هذا العصر لكتب رسائل النور)

فعصر « النورسي » عصر متميز منفرد بكل خواصه ومكوناته، لا يشبه - في تعقيداته - عصر أىَ مجددٍ جاء قبله.. فهو عصر زلزالي خطير، هزّ كلَ ما توارثته البشرية من قيمٍ ومثلٍ وأفكار، وأشاع فيها الفوضى والاضطراب والشك والقلق.. وهو زمن التفجرات الفكرية والنفسية للبشرية قاطبة.. وهو عصر الثورة والتمرد على الدين والايمان والفضيلة.

وهو أيضاً عصر تأليه العلم وعبادة العقل والطبيعة وهيمنة الشك، حتى على مسلّمات الانسان وبدهياته المنطقية وأصوله العقلية..

ورغم أن هذه الثورة العارمة أوربية قلباً وقالباً، إلاّ أنها مع ذلك ألهبتْ العالم كله، ووصل لهيبها الى أقطار العالم الاسلامي أيضاً بنسب مختلفة بحسب قرب هذا القطر أو بعده، وصلته بالمنطقة المشتعلة أو انعزاله عنها، وكان لتركية المسلمة القائمة على حوافي أوروبة القسط الأعظم من هذا اللهب والدخان.

وليس صعباً على «النورسي» ذي الذكاء الخارق، والعقل الاستيعابي الشمولي أن يحيط بكليات الفكر الأوربي الحديث، ويُلمّ بفلسفاته وعلومه ويطلع على إيجابياته وسلبياته. ويقف على تأثيراته في الإنسان المعاصر وفي تكوين أفكاره الجديدة، وتغيير نظرته الى الوجود والحياة، وأخيراً كيف دفع – هذا الفكر بمعطياته المادية – بشرية القرن العشرين الى هذا الموقف البارد واللامبالي من الدين والايمان عند البعض، والى العداء الصريح عند البعض الآخر.

ولم يكن الفكر الأوربي لينجح مثل هذا النجاح في غزو الشعوب الاسلامية في عُقردارها، لو لم يجد هذه الشعوبَ في حالة من الذهول الروحي عن الآخرة، حيث لم يعد للآخرة ذلك الحضور القويّ والدائم في ذات المسلم وكيانه، فتضاءل هذا المسلم وانكمش، ودخل دائرة الدنيا الضيقة المحدودة بعد أن مات إحساسه العميق بالامتداد والاستطالة الى ما واء الدنيا.. ولم تعد الآخرة اكثر من شبح باهت يتراءى له في خيالاته وأحلامه.

ولم يبدد «النورسي» وقته الثمين بهوامش المشكلة وجزئياتها، ولم يناقش فرعياتها، أو يدخل في مطارحات عقيمة حول مناقضات الدين وموافقاته لمنطلقات الفكر الأوروبي ومذاهبه الأخلاقية والسياسية والاجتماعية كما فعل الكثير من الكتاب الاسلاميين ويفعلون اليوم، وإنما توجّه رأساً وبخط مستقيم الى المشكلة الأساس وهي:

هذه الضبابية التي تتكاثف يوماً بعد يوم، وهي تكتنف غيبيات الدين –كالحشر والآخرة والجنة والنار والثواب والعقاب – في ذهن المسلم وفي خياله.

فمضى «النورسي» يسلط حرارة أفكاره على هذه الضبابية المخيفة فإذا هي تتبخر تدريجاً و تنزاح من ذهن المسلم وخياله، وتشرع كتاباته ترهف ما تبلّد من مشاعر القلب والروح، وتشحذ ماصدئ من أشواق الى الملكوت، وتفتح كوىَ النفوس ومنافذ الضمائر على نفحات الغيوب، ورَوْحٍ وريحان الجنان في آخرة الرحمن.

و «النورسي» نفسٌ شاعرة، وروح لهيف، وقلب مشتاق، ووجدان رقيق مرهف، وبصيرة نفّاذة مذواق، وبصر لمّاح رصّاد لا تفوته بارقة من بوارق الجمال الكوني، ولا تفلت منه سانحة من سوانحه، وطائر عجيب يلقط لآلئ الحسن من فوق جيد الوجود، وظامئ عطش يترشف زلال الجمال من رضاب ثغور الأكوان.. ومع كونه يملك كل صفات الشاعر العظيم إلاّ أنه لم يقل شعراً أعني أنه لم ينظم شعراً كما ينظم الشعراء، ولكنِ ما قاله في «المثنوي» رغم أنه يحمل ميزات النثر ومقوماته شكلاً وقالباً، إلاّ أنه شاعري الروح والنفس، وجداني الانسياب رشيق في صوره وأخيلته مع عمق أفكاره ودقيق معانيه.

والشعر – بعد هذا وذاك – قد يضطر للكذب أحياناً حتى يَعْذُبَ، ويضطر للمبالغة في كثير من الأحيان حتى يحفز ويثير ويحرك، وهو من أجل تصوير معنىً من المعاني، وتجسيم قيمة من قيم الجمال والحق قد يجنح الى ما وارء المعقول، ويهبط في خياله على اللامعقول من الأخيلة والصور..

وكلام «النورسي» – رغم روحه الشاعرية – منزّهٌ عن هذا كلّه، فهو يتعامل مع صور الحقيقة ويتحاور مع آثارها، ويناقش ظلالها على صفحة الوجود وهو لا يفعل اكثر مما يفعله الرّسام البارع في الصورة الباهتة وقد

حالت خطوطها وانطمست معالمها، واختلطت ألوانها... فيمّر عليها بفرشاته المطواع ليبعث الدفء والحرارة فيما بَرُد من ألوانها، ويُجسّم ما غام وشحُب من معالمها، ويمنحها أبعادها التشكيلية، ويهب الرائي عمق الرؤية، ونفاذ النظر الي دواخلها.

فالمثنوي العربي النوري – مثلاً – ليس سوى لوحة فنية رائعة الجمال، رسمها فكرٌ ملتهب ولَوّنها قلبٌ دامٍ، وسكب عليها الظّل والضياء روح حزين مغترب، فلا عجب إن شدّتْ – هذه اللوحة – إليها الانتباه، وقيدت بها الافكار، وحبست عليها الأرواح وأوقفت لها القلوب.

وهي بموسيقية ألوانها، وتناغم ظلالها وأضوائها، وإشراق آفاقها. وامتداد أمدائها، وعمق أبعادها، وجمال تعبيرها؛ تأسر الألباب، وتشدّه النفوس، وتهز رواكدَ الأشواق في الانسان الى ماواء هذا العالم الضيق المحدود.. وإلى ماواء هذه الحياة التي مهما طالت فهي دون ما يرجوه من خلود، ودون ما يُرواده من آمال في البقاء والأبد.

إنّ إيماناً لا تُذكي جذوتَهُ الأشواقُ الى الله، ولا تُلهب حماسَه لوعةُ الحنين الى جمال الآخرة ولا يُوري زناده عطش دائم الىٰ الخلود والبقاء، هو إيمان تقليدي بارد، واعتقاد هشٌّ، سريع التفتت والانكسار، تستهدفه سهام الاعداء أول ما تستهدف و تتناوله معاول الخصوم أول ما تتناول.

فالمسلمون كلّهم – إذا حاورتهم – مؤمنون بالآخرة؛ ولكنّ القليل منهم من يشتاق إليها شوق العاشق الولهان الذي لا يتردّد – إذا جدّ الجدُّ – أن يجعل دنياه كلها صداق وفائه، وعربون إخلاصه، وأن يُقدّم حياته فرحاً بيوم لقائها وساعة وصالها.

والمسلمون كلُّهم – إذا سارتهم – مؤمنون بالجنة، ولكن أين الذائبون فيها؟ والملهوفون عليها؟ أين منهم مَن أضناه البعاد، وأسهدَهُ طول الانتظار.؟ وأين من يظمئُ نهاره، ويُسهر ليله من أجل رضى الله الذي بيد رحمته مفاتيح الجنان..؟

والمسلمون كلّهم – إذا خاطبتهم – مؤمنون بالنار، ولكن أين الخائفون المرتعبون منها؟ أين الذين ترتعد فرائصهم من هول عذابها؟ وأين الذين يحسّون و كأنهم مواقعوها بين لحظة وأخرى؟ فيسألون الله النجاةَ منها، والخلاص من سعيرها بما يرضاه الله من تقواهم وصالح أعمالهم.؟

ورسائل النور، كتابٌ فريدٌ في موضوعه، لم يسبقه كتاب فيما تناوله من أفكار، وعالجه من موضوعات. والراجح – عند المعنيين بالقضايا الايمانية – أنه فيما إستهدف الخوضَ فيه من «غيبيات الايمان» قد أوفى واستوفى، حتى إنه ليغني عن كل كتاب آخر في الموضوع نفسه عدا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.. ولا كتاب – على الأطلاق – يُغني عنه عداهما أيضاً.

ولم يوفق مؤلف كما وفق «النورسي» رحمه الله في «مثنويه» أولاً وفي «رسائل النور» من بعده، في تجلية الحقائق الايمانية أمام الأبصار (كالحشر، والآخرة، والجنة، والنار، والثواب، والعقاب، والخلود) وفي البرهنة المنطقية على حتمية وقوعها كما أخبرت به الأديان، فجسّم ما تشاحب منها في خيال المؤمنين، وعمّق حدود ما تباهت منها في أذهانهم، وقرّب ما بَعُدَ منها عن عقولهم، وأحضر ما غاب، وكشف ما خفي عن الألباب، حتى ليكاد أحدنا يلمس بيده حقائق الغيب، ويبصرها حاضرة ماثلة قائمة في نفسه، وفيما حوله من مشاهد الكون والحياة.

والشفافية التي ينظر «النورسي» من خلالها الىٰ هذه الدنيا بأرضها وسمائها، وكائناتها وموجوداتها، تحوّل كل شئ فيها الىٰ «رمز» يومئ ويشير الىٰ معنىً من معاني الآخرة وحقيقة من حقائقها.

ولم أعرف مؤلفاً استخدم ما يعايشه الانسان – في حياته – وما يلمسه ويحسه، ويسره ويحزنه، من أمور ووقائع وأحداث في تجلية ما يغمض على الأذهان، وما يبعد عن التصور، وما يندّ عن الخيال، من حقائق الآخرة كما فعل «النورسي» رحمه الله في كل ما كتب. وهو لبراعته في استخدام «الرمز» وقدرته الفذّة على الربط بين «الرمز» المحسوس، وما يماثله ويشبهه من غيبيات الآخرة، يُشعر القارى – وهو يقرأ كتاباته – وكأنّ جواً أخروياً بأنواره ولطافته يغشى روحه، ويغمر كيانه، وأنه يتنسم أنسام الآخرة، ويستنشق أنفاسها، ويكرع من مسرّاتها، وهو بعدُ في مكانه من الدنيا.

والنورسي – بنزعته الموسوعية، ونظرتة الشمولية التي كانت طابعَ حياته الفكرية والروحية منذ تفتّح وعيه على الحياة – شغوف بالقراءة والدرس والتفحص والتأمل، يقرأ في علم النفس، ويدرس الفلسفة، ويهتم بفسلجة الانسان التشريحية، ويلم إلمام المتخصصين بالرياضيات والفيزياء والكيمياء، وبعلمي الحيوان والنبات. ويتأمل في العلوم الفلكية، ويطلع على أحدث نتاجات الفكر الأوروبي المترجمة الىٰ التركية من قبل بعض المرموقين من المثقفين الأتراك.

وبعد ذلك كله يستخدم ما أفاده من هذه العلوم والمعارف في خدمة الايمان القضية الكبرى التي كرّس لها حياته، وأوقف عليها وجوده.

ولما كانت الموجودات في هذه الدنيا – كما ينظر اليها النورسي – هي أمثلة مصغرة لوجود أخروي كبير، وأطياف خيال لحقيقة أخروية أعظم، وأشباحاً باهتة لرؤى فكرٍ أخروي غاية في السعة والشمول والدقة والعظمة. لذا فإن كل موجود هنا في عالمنا الصغير هذا موصول بما يناظره هناك، وكل معنىً هنا مرتبط بمعنى أسمى واعظم هناك؛ فالدنيا مرتبطة بالآخرة، وحبُّ البقاء والكمال عند الأنسان هنا يؤكد معنى الخلود والبقاء والكمال هناك، والصّورُ الذي ينفخ فيه الربيع ليبعث من الأجداث مئات الألوف من أنواع النبات والحيوان والحشرات كلّ سنة، إيماءة واضحة لصُور أكبر، وحشر أعظم يومَ القيامة، والحافظة في مخ الإنسان وهي بحجم حبّة خردل، والتي تحتفظ بشريط مسجل لماضي الانسان وما وقع له من أحداث، هي مثال مصغر لحافظة أخروية أوسع واكبر تحفظ سجلاً كاملاً لتأريخ حياة الانسان على هذه الأرض، ليعرض عليه في الآخرة عند مناقشته الحساب.

وهذا غيض من فيض من الأمثلة والمقايسات التي هي من أروع التفاتات صاحب «رسائل النور».

وخواطر «النورسي» في «رسائل النور» إنما هي تفجرات فكر ملتهب، ونفثات روح متأجج بنيران المعارف وأنوارها وإشراقات قلب ينهل من شمس الأزل والأبد.

وكل كلمة قالها أو خطها أو أملاها على تلامذته إنما هي حقيقة بعيدة المنال، خاض اليها الأهوال، وقطع الفيافي والقفار، وعَبَرَ اليها بحوراً من حجب النفس والوجدان، وقاسى من اجل إقتناصها أشدّ المقاساة، قبل أن تتجلّى في سماء ذهنه مجلوة مشرقة مبرأة من ظلال الشك وسحائب الوهم، كالشمس الساطعة في ضحى يوم صائف.

وليس «النورسي» صاحب قلم بارد يغمسه في مداد فكر بارد، ليكتب ما يشاء وقتما يشاء.. إنما هو المعاناة الجريحة المدماة التي تنزف فكراً فيه حرارة الروح، ودفء القلب.. وإنما هو السحابة المثقلة بماء الحياة والتي لا يدري أحد متى تبرق وترعد وتغيث.. وإن شئت فاستمع اليه حيث يقول في وصف حاله عندما كتب «مثنويه».

«... والكلمات إنما تولدت إثرَ جدال هائل ونقاش عظيم مع الفكر وسطَ إعصار تتصارع فيه الأنوار مع النيران، فأُحسُّ برأسي يتدحرج في آن واحد من الأوج الىٰ الحضيض ثم يرتفع من الحَضيض الى الأوج، ومن الثرى الى الثريا؛ إذ سلكت طريقاً غير مسلوك، في برزخ بين العقلِ والقلب، ودار عقلي من دهشة السقوط والصعود، فكلما صادفتُ نوراً نصبت عليه علامة لأتذكره بها وكثيراً ما أضع كلمة على ما لا يمكن التعبير عنه للإخطار والتذكير، لا للدلالة، فكثيراً ما نصبت كلمة واحدة على نور عظيم...».

* * *

على مشارف النفس

لا جدال في أنّ «النفس البشرية» طاقة عظمىٰ من طاقات البناء والاعمار، ومصدر خصب من مصادر الحق والعدل والخير والجمال في هذا العالم إذا مازكت وصفت وغدت موصولة الاسباب بفاطرها وموجدها، لأن صلتها بالله، واستمساكها بأسباب أنواره، يجعلها موضع نظره، ومَنْ كَان موضع نظر الله تعالىٰ افيضَ عليه من صفات جماله وكماله ما يستطيع بها أن يمحق ظلام الدنيا وشرورها.. وهى – أي النفس – قوة تدميرية عمياء، وطاقة هدم مرعبة، اذا ما نجمت فيها جرثومة التمرد والنزق والجموح، وعصفت بها رياح الهوى الهوج المحركة لنيران رغباتها المجنونة، وشهواتها العارمة، فتحرق هذه النار كل سبب يصلها بالله تعالى، فلا تلبث – بعد ذلك – أن تتنكر لخالقها وبارئها، وتنزع الى عصيانه، وترغب في الانفلات من مسؤوليات الايمان، وتكاليف الاسلام.

و«النورسي» – رحمه الله – إنما يرصد هذه النفس الضالة التي قد غلبت عليها رعونتها، وركبتها حماقتها، فتنشط في البحث عمّن يسليها ويلهيها، وينسيها مَنْ تكون...؟ ولِمَ كانت...؟ وما واجبها...؟ وما مسؤولياتها...؟ ويأسف لها وهي تتصامم عمّن يريد لها الصحو المسؤول، واليقظة البصيرة، ويطلب لها التعلم والمعرفة، ويأخذ بيدها للأرتقاء والسمو، ويشرفها بمعرفة الله ويتوّجها بتاج طاعته، ويلبسها حلل معرفته..

ويرىٰ أنها – إذا زاد ارتكاسها وفاض بها غرورها – قد تتوهم نفسها قطب العالم ومحور الوجود، فتقيس كل شئ بمقاييسها، وتزنه بموازينها، لظنها أنها منبع كل حق، ومصدر كل صواب.. وقد تتمادى في هذا الغرور الاحمق حتى لتنازع «الرّبوبية» سلطانها، وتنسب لنفسها من صفات الألوهيه ما تشاء ويشاء لها الهوىٰ.

وتتفاوت «النفوس» في أسباب تعرضها لمخاطر هذا التورم الخبيث، والانتفاخ المرضي المخيف، فيغدو البعض أشدّ عتواً، وأصعب توعراً، واكثر استعصاءً وتمرداً على حقوق الربوبية، ومستلزمات العبودية من البعض الآخر. وبسبب هذا التورم الذي يتسلل الى مخ النفس، فيشل وعيها، ويفقدها صوابها، ويُعمّي عليها حقيقة حجمها، وتبيان موقعها الصحيح من الله.. وبسبب غياب «العقل الايماني» الذي يبصرها بحقيقتها، ويمنعها من الجموح والشطط، فهي غالباً ما تنساق مع الوهم، فتتخيل استطالة حجمها، وتضخم جرمها، وتحسب الكون قاصراً عن احتوائها، والأرض عاجزةً عن حمل عظمتها.. ومن هنا.. من عدم تحديد مكان «النفس» من الله، ومن تجاوزها حدود وظائفها في هذا العالم تنجم جميع شرور العالم وآثامه، وتنبعث جميع الآمه وأحزانه ومآسيه، ومصداق ذلك ما يحدثنا به التاريخ من مدّعي «الالوهية» و«الربوبية» من الملوك والاباطرة والفراعين، وغيرهم على اختلاف مدّعياتهم الباطلة، وما خلفوه وراءهم من جروح والآم في حياة الشعوب والحضارات.

وخشية من وقوع «النفوس» فريسة هذا التورم البشع المخيف، وحرصاً من «الاسلام» على ان تظل «نفس» المسلم صحيحة تستمتع بالسلامة والعافية، فقد حثّ القرآن على مجاهدة نزق النفس، وحذّر من تمردها

عصيانها لخالقها، واعتبر مجاهدتها واجباً ايمانياً لا يقل أهميةً عن واجب مجاهدة العدو، بل يزيد عليه، لان العدو الذي يريد الشَّر بالبلاد والعباد بَيِّنٌ ظاهر للعيان بسلاحه وعدّته وعدده، نواجهه ونحن نرى ونسمع، فيجتمع عليه كياننا كله، وتتهافت عليه حواسنا جميعاً، وتتعاون على قهره طاقاتنا بأسرها.

أما «النفس العاصية لله» فهي عدو خفي لا نراه ولا نحس بعداوته، لانها تسري في وجودنا كله، وتجري منا مجرىٰ الدم، ولا يجتمع عليه وجودنا كله لانها جزء من هذا الوجود، فضلاً عن أننا لا نعرف متى تهاجمنا ؟ ومن أي ثغرة تتسلل الى مقاتلنا؟ وأي سلاح رهيب من أسلحتها تجربه فينا؟ لذا يتعين علينا أن نبقىٰ حذرين دائمي الحذر، متيقظين دائمي التيقظ، نرصد حركاتها، ونراقب مناوراتها، ونأخذ منها زمام المبادرة، فنلجمها قبل ان تجمح بنا، ونأخذ بخطامها قبل أن تهيج علينا وتلقي بنا تحت أقدام طغيانها فلا تفلتنا حتىٰ تسحق منا الروح والقلب والعقل.

* * *

وقد عانىٰ «النورسي» من نفسه الشئ الكثير، فهي نفس جموح، وعرة المراس، صعبة الترويض، عصية على الاقتناع، تأبىٰ ان تسلس له القياد ما لم يأتها علىٰ الرأي الذي يراه بالدليل القاطع لكل شك، والبرهان المبدد لكل ريب. لذا فقد كان همه الأعظم إقناعها بالرأي الذي يراه، والفكر الذي يخلص اليه.. فهو في كل ما كتب ولاسيما في «المثنوي» إنما كان يكتب لنفسه بهذا القصد ولهذا الغرض، وكأنّ نفسه – لشدة جموحها ونفورها من الفكر التقليدي – قد آثرت الانفصال عنه، والانسلاخ منه،

فصار لها كيان مستقل، وشخصية مناوئة، تقف ازاءه، وترصد فكره، ولا تنفك تحاوره وتلح عليه في الحوار، وتسأله وتلح عليه في السؤال، حتىٰ تضطره للاجابة عليها بحشد هائل من الأدلة والبراهين التي تقنعها وتطمئنها، وتلزمها الحجة والتسليم. وفي معرض وصفه لهذه المعاناة مع نفسه يقول «النورسي»:

«ان هذه ثلاثون سنة لي مجادلة مع طاغوتين وهما : (أنا) في الانسان، و(الطبيعة) في العالم..»(١).

والمأساة الأخرىٰ التى ظلّت تؤرّق «النورسي» طوال حياته، وتنغر في ضميره، انما هي سقوط الملايين من البشر في هذا العصر في حبائل «الطبيعة» وانحباس أرواحهم في اقفاصها، وتعبدّهم – كما يتعبد الوثنيون – لنواميسها وسننها، فنسبوا لهذه النواميس والسنن ما ينسبه المؤمنون الى الله تعالى من صفات الخلق والايجاد والقدرة والعلم والحكمة والقصد والاختيار، وبذلك حجبت «الطبيعة» المخلوقة، بصفاتها الاعتبارية غير الذاتية، الانسان الوثنى عن «الخالق» الحق، وامتصت إيمانه، وأنشبت أظفار الجحود الحاد في روحه، وحولت قلبه الخصب الى جفاف كجفاف رمال الصحراء، فاستثني – بهذا الإنحراف الأخرق عن الله – استثناءً شاذاً من بين التوافق الكوني العظيم الذي تندرج الاشياء جميعاً فيه، وتتآلف معه في وحدة كونية نابضة بالمعرفة والمحبة لله، فاذا به – على الرغم من كل منجزاته الحضارية المبهجة – ينوح نوحاً مريراً على شقائه الروحي كنواح النغم الحزين المنفرد بحزنه من بين منظومة اللحن الضاحك البهيج.

وكما حاور «النورسي» جموح النفس، وناقش نزقها وتمردها، وردّ على اعتراضاتها حتى راضت وقنعت واطمأنت، فانه كذلك ناقش المؤلهين

(١) المثنوي العربي النوري ص٢٢١

للطبيعة، واستعرض مقولاتهم، ثم ردّ عليها واحدةً تلو الأخرىٰ، وخلص في خاتمة المطاف إلى خطل راي من ينسب اليها الحياة والخلق والايجاد من دون الله تعالىٰ..

ولما كانت «نفسه» دائمة الحضور معه، قائمة بين جنبيه، تناقش فكره الايماني، وجهاً لوجه، وتلقي باعتراضاتها حوله، لذا فإنّ «النورسي» كتب ما كتب بقصد ترويض هذه النفس الجموح الثائرة على كل فكر تقليدي، وبنية تبديد شكوكها، وقهر عنادها، وإقناعها بصحة أفكاره، ومصداقية قناعاته.

ومن هنا فليس غريباً ان يكتنف بعض افكاره في «المثنوي» شئ من الغموض غير المقصود، لانه لم يكن مقصوداً من كتاباته سوى نفسه، فلربما كفاه السطر والسطران لتفهم عنه نفسه، وتعرف مراده، ولا تكفيه الصفحة والصفحتان ليفهم عنه القارئ بعض مراده(٢).

ومن حق القارئ الذي يقرأ هذا الكلام أن يسأل نفسه:

اذا كان مقصود «النورسي» فيما كتب في هذا الكتاب «نفسَهُ» فما جدوىٰ نشره، وإغراء الآخرين بقراءته؟ وهو لم يُكْتَبْ لهم أصلاً، ولم يُصنّف لأجلهم؟

وللجواب على هذا السؤال نقول:

ان «النفس الإنسانية» هي واحدة في جوهرها، وواحدة في أسباب صحتها ومرضها، كالجسد تماماً، فاذا كانت الأمراض التي يمكن أن تصيب جسد «زيد» هي نفسها التي يمكن أن تصيب جسد «عمرو» وان

(٢) المثنوي العربي النوري ص٣١٨

ما يفيد «زيداً» من دواء يفيد «عمروا» أيضاً، فكذلك فإن أمراض «النفس» هي واحدة لدىٰ جميع البشر مع بعض الفروقات بين نفس ونفس. فالعلاج الذي استعمله «النورسي» لنفسه قد يفيد أى انسان آخر يعاني ما كان يعانيه «النورسي» من نفسه، وهو يقول بهذا الصدد:

«ولا تخف من تمرد النفس، لأن نفسي الأمارة المتمردة المتجبرة انقادت، وذللت تحت سطوة ما في هذه الرسالة من الحقائق، بل شيطاني الرجيم أفحم وانخنس.. كن من شئت، فلا نفسك أطغىٰ واعصىٰ من نفسي، ولا شيطانك أغوىٰ واشقىٰ من شيطاني»(٣).

فضلاً عن التجارب الذاتية التي تخوضها النفوس العظيمة، هي رصيد جديد يضاف الى رصيد الإنسانية ويثري معرفتها بشؤون الروح والوجدان، ويمنح أفرادها ما يفيد في اجتياز قلقهم الروحي بنجاح، وتخطي عواصف شكوكهم بسلام، وقد اعتاد البشر – منذ أقدم العصور – أن يفيد بعضهم من تجارب البعض الآخر، ولولا هذه السنّة الحسنة التي درج عليها الناس لما وصلت البشرية الى هذا الصرح الهائل العظيم من المعارف والعلوم والأفكار.

ونكاد نلمس بين سطور «المثنوي» غبار الصراع الدؤوب الذي خاضه «النورسي» بشجاعته ضد تمردات نفسه وجنوحاتها قبل ان تسلس له القياد، وتسلم له الزمام، حتىٰ اننا لنتعاطف معه، ونأسىٰ من أجله ونحن ننظر بعين الخيال الى ما عاناه هذا الرجل من عذاب قبل ان يحقق انتصاره النهائي على الجانب المستعصي من نفسه..

وما من أحد من المؤمنين إلاّ وله مع نفسه العصية مواقف او بعض مواقف – كالتي كانت للنورسي مع نفسه – مع اختلاف درجات التوتر

(٣) من المثنوي العربي النوري.

والقلق والصراع ضعفاً وقوةً، وقلة وكثرةً، في الأشخاص، تبعاً لدرجات إيمانهم ويقينهم؛ لذا فما من أحد إلاّ وله في تجربة «النورسي» ما يفيده بدرجة أو باخرىٰ.. واذا ما فاتنا النزر اليسير من علاجات «النورسي» لنفسه، بسبب بعض الغموض في بعض وصفاته، الاّ أننا سنفيد – بلا ريب – من الشئ الكثير منها، وكما يقول:

« لا تقل: اذا لم ادرِ الكل لا اريد الكل.. فاذا كنت في بستان أتترك الثمرات ان لم تأكل كلها »(٤).

فَرُبّ زهرة تقطفها من حديقة «المثنوي» تغنيك بشذاها وجمالها عن عشرات الأزهار، ورُبّ فاكهة تنالها يدك تعطيك مذاق مائة فاكهة وفاكهة.

فالمثنوي.. كتاب فريد في مصداقيته، قد سجل فيه «النورسي» بأمانة وعفوية وصدق سيرة نفسه وما كان يعتورها من قلق واطمئنان، وينتابها من صحة وسقام، ويتناوشها من شك ويقين، من دون زيادة أو نقصان، حتى إنه ليترك نفسه تنساب – على سجيتها – مع انسياب قلمه، فلا يجري على كلامه في بداهته الأولى أيّ تبديل او تعديل، حفاظاً على براءة عفويته، وخوفاً من أن يدخل على كلامه مايخدش صدقه، ويمسّ بكارة معانيه(٥).

وما يتكرر في أول كل خاطرة من خواطر «المثنوي» من «اعلم» فالمقصود: «اعلم يا سعيد». أو «إعلمي»، فالمقصود: «إعلمي يا نفسي» فبسر قوة الصدق الذي يشيع في ثنايا الكتاب – لأنه ليس بعد الصدق مع

(٤) المثنوي العربي النور ص٣١٨
(٥) المثنوي العربي النوري ص٢١٨.

النفس من صدق – وبسرّ قوة الروح المسكوب في كلماته – لأنه ليس من روح أقوىٰ من روح عجنته المعاناة، وانضجته نار التجربة – يمكن لأي انسان الإفادة من تجربة هذا الكتاب في ترويض نفسه، والتحرر من رهقها، وكذلك تنقية مداركه العقلية من مفاهيمها الخاطئة عن ربوبية «الطبيعة» و«الوهية» ماديتها. فبإنهدام هذين الوثنين النفس والطبيعة وتحرر الإنسان من طغيان سطوتهما عليه، ينفسح له المجال واسعاً لميلاد ذاته الحرة من جديد، وانتفاضها من بين أنقاض عالمه المتهدم مفعمةً بالعافية، طافحةً بالحيوية، فلا تلبث حتى تسرع في استرداد وعيها الأعمّ الأشمل، وإدراكها الأصح الأصوب، فترىٰ – بصفاء نظرها وسريرتها – أنّ كل موجود – بحد ذاته – حرفٌ ضائع لا معنى له ما لم يعطه اسم «الله» الأعظم معناه بالانتساب اليه، ويسبغ عليه مغزاه على قدر ارتباطه به وفهمه عنه..

فالكائنات والموجودات – بما فيها الإنسان – حروف خاوية حائرة تجوب كتاب العالم، فلا تقرُّ او تجد لها مكاناً فوق سطور هذا الكتاب الكبير ما لم تستمد معانيها من اسماء الله الحسنىٰ، وما لم يمسها مدد من أمدادها، وينسكب فيها مدادٌ من مِداد بحار القُدرة.. فلا شئ موجود علىٰ الحقيقة ما لم يعطه الله شيئيته، ويمنحه كيانه، ويقدّر وجوده. فاذا وصل الانسان الىٰ هذه النقطة من الادراك، ولاسيما بعد عظيم المعاناة فقد وصل الى «التوحيد» الخالص، وتشرب جوهر الإيمان والاسلام وعرف جدوىٰ الوجود ومعناه..

وهذا هو ما يرمي «المثنوي» ويهدف الى تحقيقه في نفس صاحبه أولاً، وفي نفس كل قارئ من بعده.

* * *

والتوحيد الخالص من شوائب الشك، والذي يشكل لبَّ الايمان، وجوهر عقيدة الاسلام، هو في «المثنوي» ليس أمراً تقريرياً، ولا معنى تلقينياً، ولا عقيدة تقليدية، ولا كلاماً محفوظاً مردداً يردده المسلم بلسان جاف، وقلب بارد، ووعي ذاهل، كما هو مشاهد اليوم لدىٰ الكثير من المسلمين.. فلا غرو إذا ما عجزت «كلمة التوحيد» اليوم – وقد خالطها هذا القصور المعيب – أن تخرق أبواب الروح، وتلج الىٰ أعماق الفؤاد، لتطلق قوىٰ المسلم، وتفجر طاقات كيانه الروحي الذي اصابه الضمور وغدا عاجزاً عن ممارسة أي نشاط يمكن أن يزيد في نموه، ويقوي فيه بصيرة الكشف الذكي عن «علوم التوحيد» العظيمة في مظانها الأصلية من نفس الكون والانسان.

فالتوحيد الذي يدعونا اليه «المثنوي» ليس تقريرياً، ولا تلقينياً، ولا تقليدياً، ولا ترديدياً، بل استكشافياً.. فيه ما في الاستكشاف من متعة ومغامرة ومعاناة، فهو يأخذنا – عبر خواطره – في جولة استكشافية في أغوار النفس الانسانية، ويدور بنا في أنسجة الروح والفكر والضمير، ثم يزيح التراب عن ذاكرة الكون المؤودة تحت ركام علوم العصر، ويستنطقها لتحدثنا عن بصمات «التوحيد»، وتدلنا على آيات الاله الواحد الذي لا يقبل الشريك.. ولا يتركنا الا ونحن قد اكتشفنا «التوحيد» والتقيناه في أشد الأشياء الكونية والنفسية بداهةً، فينبثق في صميم افئدتنا إنبثاقاً، وينغرس بشكل عفوي في أعماق أرواحنا وضمائرنا، فيهز هذا التوحيد الاستكشافي أعماق النفس، ويفعم الذهن بطاقات الذكاء، ويشدُّ في الوجدان أجهزة التلقي عن الكون والحياة، فيستمر المسلم كشافاً رائداً لأعمق الحقائق – في الكون والانسان – في ديمومة لا تتوقف حتىٰ تتوقف حياته.. فيزيد فهماً، ويتسع وعياً ويخصب وجوداً وحياة.

والايمان بالله واحداً أحداً فرداً صمداً هو أحد المحاور الثلاثة – بعد النفس والطبيعة – الذي يدور حوله «النورسي» في أفكاره وخواطره المسجلة على صفحات «المثنوي». وهو يرى ان العقل المسلم ينبغي ان يكون قرآني التصور لمفاهيم التوحيد، ولصفات الكمال والجلال والجمال التي يتصف بها الله سبحانه وتعالى. وأن هذا «العقل» الذي تشكل المفاهيم القرآنية تصوراته عن الألوهية والربوبية.. لا يمكن أن يرقى الى قمته عقلٌ كائناً ما كان ما دام محجوباً عن القرآن.

و«النورسي» وان لم يكن قد استعرض تصورات العقليين للألوهية والربوبية، وتصورات غيرهم من أصحاب الأديان والمذاهب والنحَل الاّ أننا نحس من خلال كلامه عن أسماء الله تعالىٰ وصفاته، وكأنه يردّ – ضمناً – على هذه التصورات المنحرفة، ويفندها الواحدة تلو الأخرىٰ.

ففي كلامه كما سيلمس القارئ بنفسه ردّ ضمني على مَنْ يزعم – من العقليين – بأن الله تعالى خلق العالم وفرغ من خلقه، ولا شأن له به بعد ذلك..

وردٌّ علىٰ مَنْ يدّعي عدم علم الله بالجزئيات – تعالى عن هذا علواً كبيراً..

وردّ على مَنْ يؤمن بالله ولكنه يتردد ويتلجلج في ايمانه بالملائكة والكتب والرسل والقدر، واليوم الآخر، والنشر والحشر، والجنة والنار.. الى آخر تلك التصورات السقيمة المجانبة للحق، والمجافية لما أثبته القرآن وجاءت به السنة المطهرة..

إنَّ الآية القرآنية ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِه شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير**﴾(الشورى:١١) قد أوفَتْ وكفت وردّت علىٰ تصورات العقول البشرية – بقصورها

ومحدوديتها – لله سبحانه وتعالى، وأزرت بقياساتها الفاسدة ابتداءً من تصورات أدنىٰ الوثنيين عقولاً، ومروراً بأكبر عقل من عقول فلاسفة الإغريق، وانتهاءً بآخر ما وصل اليه العقل الرياضي والعلمي الحديث.. والآية – بحد ذاتها – إشارة الى أن المسألة أجلّ وأعظم من أن تترك للأمزجة والخيالات والعقول القاصرة لكي تخوض فيها وترى فيها رأيها من غير هدىً يهديها من الله الذي هو أعلم بنفسه، وأعلم بخلقه، وقدرات عقولهم عن الفهم عنه، وادراك ما هوفي مكنتهم من معاني أسمائه وصفاته.

* * *

و«النورسي» يرىٰ في «الاسماء والصفات» حلاً للغز العالم، وجواباً على أسئلة كثيرة ربما كان أهمها وأعظمها على الأطلاق هو السؤال الذي حار فيه أكبر العقول من فلاسفة هذا العصر وفلاسفة كل العصور السابقة، وهو: لماذا مُنحنا منحة الخلق..؟ وأعطينا فرصة الوجود..؟ وهذا العالم ما حكمة وجوده..؟ وما مغزىٰ انبعاثه عن العدم..؟ الى آخر هذه الأسئلة التي ما زالت مثار اهتمام العقول الحائرة من بني البشر.

و«النورسي» في خواطره عن صفات الله الجمالية يلتقي الحل، ويقع علىٰ الأجابات المقنعة، فهو يرى ان الرسام حين يرسم أجمل لوحاته – ولا مشاحة في المثال – إنما يعبر عن فيض الجمال الذي يغمر نفسه، وهو يفعل ذلك ليرى جمال نفسه في لوحاته وليُري هذا الجمال للآخرين ممّن يملكون القدرة على تذوقه وفهمه والتأثر به.. فكم يكون موقفنا سخيفاً وغير منطقي لو توجهنا بالسؤال لهذا الفنان قائلين: ماذا تفعل..؟ وما الذي يحملك على مسك فرشاتك لترسم هذه اللوحة..؟ وما سرّ ذلك ؟ وما

حكمته؟ أليس التوجه بمثل هذا السؤال عبثاً لا معنى له؟ الا يدل على قصور عقولنا؟ وسذاجة أفهامنا؟

فكذلك ﴿ **ولله المثل الأعلىٰ** ﴾ فان الصفات الجمالية والكمالية وصفات القدرة التي يدور غالب أفكار «المثنوي» وخواطره حولها، هذه الصفات التي وصف الله – جلّ شأنه – بها نفسه ومنها: (الخالق، الباريء، المصور، الرحمن، الرحيم، اللطيف، الودود، الرزاق، الكريم، القادر، العليم..) الى آخر هذه الصفات لا بد لها من التجلي بمعانيها الجمالية والكمالية في الخلق والايجاد، وان ترتسم صورتها في مرآة العالم والوجود، وتنسكب بمحاسنها وألوانها على صور الكائنات والموجودات، ليراها مَنْ وصف نفسه بـ: «أحسن الخالقين»، وليريها للإنسان في خفايا نفسه، وفيما يحيط به من موجودات. فيرىٰ – هذا الانسان – ويتأمل ويعتبر، ويشهد ويشغف، ويعجب ويشده، ثم لا يقف عند هذا بل يمر سريعاً من الرسم الى الرّسام، ومن النقش الى النقاش، ومن الظل الى الأصل، وبذلك – أي بهذا الانتقال السريع – يصبح الانسان جديراً بالفهم عن الله سبحانه وتعالىٰ، الذي قدّر ان يكون محط عنايته، وخليفته في أرضه.. وهي بلا شك ستبلغ – أي هذه الصفات الجمالية والكمالية – مداها الأعظم والأشمل والأوفىٰ من الجمال والكمال في حياة الانسان الأخرىٰ، وعمره الثاني في كنف الرحمن وفي جنته التي هي أروع لوحاته جمالاً وحسناً وكمالاً وقدرة..

وكما أنّ اللوحة الفنية العظيمة لرسام عبقري، لا يقدر علىٰ تذوق محاسنها، وترشف روح الجمال فيها، الاّ مَنْ كان له إلمام ببعض قواعد الرسم، ممّن رهف حسّه، ورقّ شعوره، وملك نفساً نقيةً صافية، وقلباً

سريع الحساسية بلمحات الحسن والجمال، فكذلك فإن «الجنة» – ولا مشاحة في المثال مرة أخرىٰ – هذه اللوحة المعجزة والتي رسمتها يد القدرة بألوان اللطف والرحمة الإلهيين، لابُدّ والاّ يزاح عنها الستار الاّ لَمَنْ يمتلك رصيداً جمالياً في روحه وبدنه، واستعداداً ذوقياً يهئ له سبل الاستمتاع بهذا الجمال الذي لا عين رأت مثله، ولا أذن سمعت وصفه، ولا خطر على قلب بشر، كما جاء وصفه – بهذا المعنىٰ – في الحديث الشريف .

ولذا فقد كرّس «النورسي» جملةً عظيمة من خواطره في «المثنوي» لتشويق الانسان، وترغيبه بالجنة، ولفت نظر النفس الى محاسنها، وتمهيد سبل معرفتها، والوصول اليها، وذلك بتهيئة أحاسيسه الذوقية والجمالية وإرهافها – وهو بعد في الدنيا – وتنقية حواس الروح والبدن من الشوائب والأكدار، وتطهير الضمير والوجدان من قبح الرذائل والآثام، وبهذا تجمل «النفس» فيشتاق جمالها الى جمال الجنة فيتناغمان ويتجاذبان ثم اذا قضي الأجل يلتقيان، فيندغمان ويتذاوبان في حرارة الاشتياق وبهجة اللقاء.

والآخرة بأحداثها وأهوالها، ونشرها وحشرها وجنتها ونارها، ليست –عند النورسي – قضية هامشية تحتل هامش ذهنه، وفضول وقته، وبقايا همّه – كما هي اليوم لدىٰ الغالبية العظمى من الناس – وانما هي شهود دائم، وحضور قائم، ووجود شاخص، لا يبرح فكره، ولا يغادر وجدانه، يراها بنظر بصيرته كما يرى الأشياء بنظر عينه، وتحسسه روحه كما يتحسس كل مشهود ومعلوم، وينفعل كيانه بها إنفعال مَنْ يبدَهُه الشئ العظيم والخطير، فيستهوِله ويتعظمه، ويخافه ويرجوه، ويرغب به، ويرهب منه.. فما دام الذي بين الانسان وبين أن تقوم قيامته، وتحل آخرته، هو أن يأتي زمن موته، وهو زمن مجهول قدرُهُ، محجوب سرّ قدومه، مكتوم

وقت نزوله، ولكنه آت لا ريب فيه، لذا فالآخرة – بهذا الاعتبار – هي غائبة حاضرة، بعيدة قريبة، مجهولة معلومة، مستورة مكشوفة.. هكذا يتحدث عنها «النورسي» – مستعيناً بما يرمز اليها من شؤون الدنيا – ويصف قيامتها وحشرها ونارها وجنتها وصف من يراها ويسمعها، ويغشاه وقتها وزمانها، وما لم يكن الشلل الروحي قد استفحل دبيبه في كيان المرء، وما لم يكن قد سرىٰ خدره المتيبس الى أمداء عميقة وسحيقة فيه، بحيث لم يعد يجدي فيه أي علاج.. فأغلب الظن ان «المثنوي» قادر باذن الله – بما تفيض به كلماته من بداهة الصدق المقنع – على تحرير هذا المرء من أصفاد شلله، وقادر على إجراء ذلك التمسيد المنشط للذرات الباردة المتيبسة في وجدان هذا المرء، وبعث الدفء والحركة والأحساس بالعافية في كيانه كله، فلا يلبث أن يندفع – في فورة عافيته – مخترقاً شغاف الأوهام بسنىٰ النور الذي أشرقت شمسه في فؤاده، ومبدداً دياجي الأباطيل ببوارق الحق الذي سطع ضوءه في افاق عقله.

وتجربة «النورسي» في مثنويه تعلمنا بان «الحقيقة الدينية» – كأية حقيقة وجودية أخرىٰ بل أكثرها علواً وشرفاً – لا يمكن ان تفصح عن نفسها، وتكشف عن سرها الاّ اذا بحث عنها وجهد في استكشافها الكيان البشري برمته، أي: بنزاهة الفكر، وإخلاص الضمير، وطهارة الروح والبدن، لان كل هذه الجوانب – التي منها يتكون الكيان البشري ويستقيم أمره – لها مجساتها الخاصة التي بها تجس جانباً من جوانب الحقيقة وتتلمسها متلذذةً بهذا التلمس والتحسس. وبمجموع هذه المجسات المتساندة والمتعاونة في الكيان البشري، وبالجوارح جميعاً – المادية والمعنوية – يمكن الاحاطة بالحقيقة الدينية والتقاطها وجعلها تسفر عن نفسها كأنصع وأجمل ما تكون، لتنال كل جارحة منها حظها، وتترشف

منها ما يلائم مزاجها، ويرضي حاسة ذوقها، ولعلّ في إسراء الرسول ﷺ وفي معراجه الى الملكوت الأعلىٰ بكيانه البشري كله – لا بجزء من هذا الكيان – إيماء الى ان المعارف الدينية والتعبدية لا يمكن للمرء ان يستكمل جميع ما يتقطر منها من حلاوة ولذة الا باستخدام جميع أحاسيس كيانه الروحية منها والمادية. فكما ان آلام هذا الكيان ليست واحدة، فألم العين ليس كألم الأذن، وألم الأذن غير ألم الضرس، وأوجاع النفس غير أوجاع البدن، فكذلك فان مباهج هذا الكيان وأفراحه وأذواقه ليست واحدة علىٰ التحقيق..

فالصلاة مثلاً – وهي معراج المسلم خمس أوقات في اليوم – تصبح – في الأداء الأمثل – موضع مذاقات الذات البشرية بأسرها؛ فكراً وروحاً وبدناً، ومن هنا جاء قوله ﷺ: (يا بلال أقم الصلاة أرِحْنا بها)(٦). وقس على هذا جميع العبادات والمعارف الايمانية الأخرىٰ التي استعرضها «النورسي» في كتابه هذا، مبيناً ضرورتها للإنسان كضرورة الماء والهواء، بل أعظم منهما ضرورة، فهو – اي النورسي – لشدة احترامه للإنسان فانه يحاور – في مثنويه – الكيان الإنساني بأسره وبجميع لطائفه أسوةً بمنهج القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وهو يقرر بأن أية معرفة إيمانية لا يكون من همها إشباع لطائف الانسان جميعاً، تبقىٰ ناقصة ومبتورة أمام المعرفة الجامعة الكاملة المستقاة من القرآن الكريم مباشرةً من قبل مَنْ هم ورثة الانبياء حقاً وصدقاً.

وحتى «القدر» الذي يقدّر مقادير الخلق، ويعين وظائف الموجودات، ويرسم لكل كائن في هذا العالم المدى الذي يمضي اليه، والبعد الذي

(٦) رواه ابو داود عن سالم ابن ابي الجعد. قال: قال رجل ليتني صليت فاسترحت فكأنهم عابوا ذلك عليه، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا بلال اقم الصلاة ارحنا بها» ولأبي داود رواية اخرى مشابهة عن محمد الحنفية (كشف الخفاء ١/ ١٠٨ باختصار)

يصل عنده ويؤشر له نقطة البداية التي ينطلق منها، ونقطة النهاية التي يقف عندها، ثم يربط الموجودات بعضها ببعض، ويسنّ لها سنن التعاون والتساند فيما بينها، فما يبدو – للوهلة الاولىٰ – وكأنه صراع من أجل البقاء بين بعض أنواعها، هو في النظرة العميقة الشاملة وفي المحصلة النهائية، وما يفضي اليه هذا الصراع من غايات ومقاصد، يصب في تيار التعاون والتساند ويثري الحياة، ويسهم في دفعها نحو الهدف الذي يريده منها خالق الحياة..

أقول: ان القدر، بهذا المفهوم الذي يطرحه «النورسي» في جملة من خواطره في «المثنوي» – وان كان فوقياً وغيبياً – إلاّ أنه لا ينزل بالانسان هكذا فجأة وعلى غير انتظار، ولا يلطم أحداً الاّ تأديباً له وتعليماً، أوتنبيهاً وتذكيراً ولا يُربّتُ على ظهر أحد غير جدير برحمته، وبلمسات لطفه وودّه، وهو ليس من همه أبداً أن يقف في طريق الانسان، ويدخل معه في صراع فلا يفلته حتىٰ يصرعه.. فلو استعرض كلّ منا شريط حياته لشعر وكأنّ ما وقع له من أحداث أو أقدار – في سني عمره كله – لم تقع اعتباطاً، ولم تحدث لغير ما مغزىٰ ويتيقن بانّ كل شئ حدث له وكأنه كان ينبغي أن يحدث على الشكل الذي حدث به وبالطريقة عينها التي حدث بها، وأنه النتيجة المتوقعة لسلسلة من المقدمات التي سبقته فلا تقبل نتيجة سواها، فالأحداث أو الأقدار – تأنيساً لبني البشر – لا تأتي مغايرة لمن تقع لهم، بل تأتي شبيهة بهم وبأعمالهم، وبما ينطوي عليه كيانهم البشري من أصول البطولة أو الخسة، ومن جذور النقاء أو الدنس. وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلىٰ شَاكِلَتِه**﴾(الاسراء: ٨٤) فعلىٰ شاكلة هذه الأعمال، وبسببها وعلىٰ قدرِها يقع القَدَر، وينفذ القضاء.

* * *

الحس الاخروي
وفكر النورسي

إنّ ممّا يثير القلق في نفوس المهتمين بالقضايا الايمانية في هذا العصر الصعب، ويملأهم أسفاً وإشفاقاً: هو ذلك التضخم المخيف في «الحس الدنيوي» لدى الغالبية العظمى من المسلمين. وهيمنة هذا الحس وغلبته على مساحات واسعة من أحاسيس الوجدان الأخرى، حتى أصبح المحور الذي تدور حوله جملة اهتمامات المسلم اليوم، والنقطة المركزية التي يرسم حولها محيط مشاغله الذهنية ودوائر نشاطه الفكري والعقائدي، بينما وفي الضد من ذلك حاق الانحسار بالحس الاخروي في وجدانه. واعتوره الهزال، وأصابه الشحوب. وكاد يزول ويختفي، لولا عمق جذوره في النفس الانسانية، وفي فطرتها التي فطرها عليها الله سبحانه وتعالى. وقد سبب هذا الوضع الكثير من المصاعب والعقبات في وجوه المجددين الاسلاميين المحدثين. وشكل حاجزاً صعب النفاذ امام دعواتهم الايمانية التي مهما بلغت من قوة الحق فانها لا تجد الصدى المطلوب إلاّ في القلة القليلة من الناس.

وإذا ما سلمنا بأن صحة «الحس الاخروي» وعافيته وفاعليته في وجدان الانسان المسلم هو حجر الزاوية في صرح إيمانه وإسلامه، وان يقظة هذا الحس ورهافته شرط اساس من شروط السلوك الايماني الملتزم، ادركنا –

فداحة الخطب الذي يعاني منه المسلم اليوم، ولمسنا ابعاده المرعبة، والخطورة التي تهدد حياته الايمانية برمتها في الصميم.

وبديهي ان الايمان وحده – من غير حس اخروي يحرك عمل المسلم، ويحدد له النية والغاية – لا يجدي في بناء المسلم المثالي، ولا ينفع في الارتقاء بعقيدته وتزكية سلوكه، كما لا يكفي وحده كذلك في حال غياب هذا الحس – في انقاذه وخلاصه من العذاب الاخروي، وذلك لأن الاعمال التي هي مناط الثواب الاخروي المنقذ للانسان من العذاب لا تكتسب مرتبة الخلود والبقاء ثم الثواب الا بقدر ما يترك «الحس الاخروي» عليها من بصمات، ويمنحها – أثناء الممارسة– من نفسه ووجوده.

ومهما قيل في اسباب هذا التضخم والتورم في «الحس الدنيوي» لدى المسلمين اليوم، إلاّ ان واحداً من أهم الاسباب إنما هو ذلك الحرمان الشديد من متع الدنيا ومسراتها التي عانت منه الشعوب الاسلامية في فترات مظلمة وعصيبة خلال بعض القرون القريبة الماضية وحين انشقت عنها شرنقة التاريخ الصفيقة، خرجت هذه الشعوب من جدب القرون، وقحط الدهور، وفي روحها جوع شديد لكل ما يلتقيها من الحياة الدنيا، وفي «لا وعيها» نزوع ملحّ لتأكل من غثها وسمينها، وتكرع من عذبها وآسنها، وتخوض في حقها وباطلها، وتنال من خيرها وشرها، وكأنها تريد من هذا التسابق على «الحياة الدنيا» التعويض عن احساسها النفسي العميق بالحرمان وعن شعورها الحاد المفجع بمهانة الفقر والعوز. ومما زاد في إثارة شهوتها للحياة الدنيا، وفي تأجيج نيران رغباتها فيها، ما كانت تراه وتلمسه من قوة الشعوب الاوروبية واستعبادها للشعوب المستضعفه، وما ترفل به اوروبة القوية من نعيم في دنياها الثرية والجميلة.

ولقد مرّ «الغربيون» عموماً بتجربة تضخم «الحس الدنيوي» قبلنا، وأقبلوا على «الحياة الدنيا» بكل أبعادهم الفكرية والوجدانية، حتى اصبحت هذه الحياة مثار اهتمامهم، ومبلغ علمهم، وشغلهم الشاغل عن كل شئ، فنسوا «الآخرة»، واداروا لها ظهرهم، لا يلتفتون اليها، ولا يهمهم في قليل او كثير وجودها من عدمه. غير انهم انكبوا على «الحياة الدنيا» بعقل نافذ وفكر بصير تواق، فلم يكتفوا بالوقوف عند سطحها، ولم يمنعهم زبدها الطافي على السطح من الاصاخة لنداء الاعماق، وهتاف الاسرار، فحملهم روحهم المغامر نحو مجاهل الكون، وخفايا الحياة، وغوامض الطبيعة ورحلوا يوغلون عميقاً في كل شئ يلقاهم في طريق المعرفة. فكان جزاء جهدهم الكشف عن كثير من نواميس الحياة والكون والطبيعة، الامر الذي مكنهم من الامساك بزمام العلوم فمضوا جادين ينشؤون حضارة، ويقيمون مدنية، إن كانت مقطوعة الصلة باخلاقيات «الحس الاخروي» إلا ان لها اخلاقياتها النفعية الخاصة بها. بينما ظللنا – نحن المسلمين مع الاسف الشديد – مبهورين بالسطوح من دون الاعماق وبالقشور من دون اللباب، وبالسفوح من دون القمم، ولم يستطع حسنا الدنيوي – وهو ينوء بعقدة الحرمان اللاشعورية – ان يوصلنا الى اية معارف او علوم يمكن ان تضيف الى معارف الانسانية شيئاً يفخر به تاريخنا الحديث.

وعلى الرغم من اننا لم نكن في حاجة الى من يغرينا بالحياة الدنيا، ويدعوننا الى حبها وعشقها. لأننا كنا بالفعل قد غرقنا الى الاذقان في المسطحات من أمورها، والعادي جداً من شؤونها، والسهل البسيط من معادلاتها، والغريب المباشر من مسائلها وقضاياها، إلا ان كثيراً من مفكرينا

كانوا – ومنذ بدايات هذا القرن – قد كرسوا اقلامهم لعملية هذا الاغراء، وبالدعوة للألتحام بالدنيا الى حد الذوبان فيها، كما ان بعض المفكرين الاسلاميين وفي الحقبة التاريخية نفسها اضطلعوا بحماس بمهمة التقريب بين مذاهب الحضارة الغربية في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وبين مبادئ الاسلام، فلا يكادون يقعون على وجه شبه من قريب او بعيد بينها وبينه إلاّ اخذوا بتلابيبه وشرعوا في الكتابة عنه من اجل ان يسهلوا لنا عملية تقبل هذه الحضارة رغم توقف نبض الآخرة في عروقها منذ زمن بعيد. ومع ذلك لم نستطع ان نحقق لانفسنا شيئاً ذا بال من مثل ما حققه الغربيون لأنفسهم.

لأنّ الحضارات – حتى تلك التي تطغى عليها النزعة المادية الدنيوية – مهما قيل في تفسيرها، وطرح حول نشوئها من آراء، إنما هي في المحصلة النهائية نتاج نزوع الروح الانساني الى الخلود والبقاء والامتداد اللانهائي في الزمن. وهذا النزوع الممض والملح هو من وراء آداب الانسان وفلسفاته، وأفكاره ومعارفه وعلومه، وهو من وراء ما ينشئ من معابد وهياكل، ويقيم من عمارات ومدن، ومن وراء ما يخترعه من مخترعات ويكشفه من مكتشفات، غير انه لا يجد هذا الروح القلق التواق الى البقاء مبتغاه في كل هذه الاشياء كما يجدها في الدين الذي يمنح الانسان الامتداد والخلود والبقاء في زمن اخروى ابدي يستكمل فيه الاندغام الكامل والتوحد التام بالابد.

لقد اكد هذه الحقيقة مئة وعشرون الفاً من الانبياء والرسل – كما جاء في الحديث الشريف – بدءاً بآدم عليه السلام وانتهاء بمحمد ﷺ، واتوا عليها بمئات الادلة والبراهين فمن يكذب اجماع مئة واربعة وعشرين الفاً

على قضية هي من اخص خصائص شؤونهم، مثله كمثل منْ يكذب إجماع مئة واربعة وعشرين الفاً من أطباء الاختصاص على حقيقة طبية هي من اخص خصائص شؤونهم.

فما دام «الموت» آخذاً برقابنا يوماً ما شئنا او أبينا، وما دمنا نفزع من العدم، وترتعد فرائصنا من فقدان وجودنا، وتلاشي كياننا، فلا مناص لنا من اللجوء الى «الدين» ليمنحنا الطمأنينة والعزاء، ويأخذ بايدينا الى مفهومه الحق والجميل عن الموت.

فالموت – في مفهوم الدين– هو تلك النقطة من الحياة التي يصل اليها الانسان لسبب ما وينعدم عندها وإن الزمن الدنيوي عليه، فينفلت من جاذبيته، وينفك من قيده، ليلج فضاء الزمان الاخروي الابدي والسرمدي، مثله مثل الفضائي الذي لا بدله من المرور في نقطة «انعدام الوزن» قبل ان يتيسر له الانطلاق منفلتاً نحو الاعماق من امداء الكون المهول.

لقد كان هذا المفهوم عن الموت» حاضراً دائم الحصور في اذهان المسلمين الاوائل، وكانوا في اوج حسهم الاخروي يوم خرجوا على الدنيا بحضارتهم الزاهية التي اثرت الروح الانساني، وامدت شجرة الحضارة بالحياة والرواء قروناً عدة، ولم يجدوا انفسهم ابداً في حاجة خنق هذا الحس، وإيقاف نبضة من اجل ان يحسنوا التفكير، ويجيدوا الابداع، ويزيحوا الاستار عن اسرار الاشياء، بل كان الامر على العكس من ذلك تماماً، حيث غدا هذا الحس دافعاً ومحفزاً لرغبات المسلمين في الخلود عبر اعمالهم وأفكارهم ومعارفهم، مادامت ستكتسب شرف رضا الله وقبوله والثواب عليها في حياتهم الاخروية.

ولم يشر دين من الاديان الى مصير الانسان، ويلح في هذه الاشارة، ويكثر من ترادها ويُذكر دائماً وابداً بالآخرة وصيرورة الانسان اليها في خاتمة المطاف كما فعل الاسلام. فاكثر القرآن الكريم من ذكرها، وبرع في وصفها، وافتنّ في تصويرها، وجسّد ببلاغته الاعجازية اهوالها، وحذر من مخاطرها، وخوّف من نارها، واثار الروع في نفس الانسان من نشرها وحشرها.

فبلغ من روعته في وصف «جهنم» التي توعد بها الظالمين حداً يكاد الانسان يحسها وهي تزفر بين يديه وتشهق، ويسمعها وهي تتميز غيظاً أمام ناظريه، فيبادر بكفيه الى وجهه يتقي بهما لهبها، ويدفع عنه لفح زفيرها، ويمسح عن وجهه سخام دخانها، فيحس لسع ألسنتها على أنامله، فيملأه الرعب، وينصدع من الخوف كيانه، وتتحطم من شدة الهول ضلوعه، فتصرخ ذرات دمه رعباً، ويستغيث مخ عظامه جزعاً، وينوح روحه الماً وتوجعاً، حتى ليضع احدهم يده على فم الرسول ﷺ وهو يقرأ عليه آيات من «حٰم» ويقول: «ناشدتك الله والرحم هلاّ ما كففت!» من شدة ما داخله من الروع والخوف.

ولم يصّور كتاب منزلٌ الجنة بظلالها وفيئها وشجرها وثمرها وطيرها وقصورها وحورها وولدانها، ونفح هوائها وطيب ترابها، كما فعل القرآن الكريم، فهو يحببها لنا، ويرسم لنا من لوحاتها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيزداد شوقنا اليها، وننجذب نحوها، ونكاد من فرط ما نراها قريبة منا نمدّ ايدينا فنقطف من ثمرها، ونتخطف من طيرها، ونبترد بمائها، ونعانق حورها، ونصافح ولدانها.

وكأنّ القرآن الكريم المؤار بهذه الصور الأخاذة من العالم الاخروي الذي سيفضي اليه الانسان بعد موته، مذخور لمثل هذا الزمان الصعب الذي

طغت فيه المادية الدنيوية الى حد انسحاق الانسان تحت ضغوط سلطانها الجبار، ورغم انها مازالت تعطي الجديد والطريف كل يوم تقريباً، إلا انها اعطت اعظم ما عندها، ولم تعد قادرة على غزو السأم الذي يعشعش في جوانية الانسان المعاصر ولا سيما الانسان الغربي. ولولا بعض اعمال البطولة الدرامية التي يؤديها الانسان في بعض مجالات علومه ومعارفه، ولاسيما مغامراته الكونية المثيرة بين وقت وآخر لظلّ قعيد الملل، لا يثار لعظيم، ولا يهتز لجليل.

فقد غزته العبثية القاتلة؛ وبدأ يرى كل شئ جميل وجليل مهدداً بأن يغدو عبث اطفال، ولهو صبيان مادامت حياته ستنتهي عند حدود «الدنيا» بضربة قادمة من ضربات الموت الذي – بسبب ضعف إيمانه او عدمه – يراه عدماً او إعداماً، ويرى القبر الذي سينزل فيه فوهه فاغرة تطل على عالم العدم المخيف. فما دام الامر كذلك فلماذا يحلم إذن ويأمل؟ وما جدوى احلامه وآماله؟

بل ما جدوى ما أنجزه من عظائم الامور، وحققه من جلائل الاعمال، إذا كان كل ذلك مصيره الزوال والعدم؟! ومن ثمة فما جدوى وجوده هو بالذات؟ وما جدوى الوجود بأسره الذي يبدو– من غير الحياة الآخرة – فارغاً من المعنىٰ والمغزىٰ؟!

إنّ الانسان المعاصر العبثي النزعة يتهاوى اليوم ويتآكل من داخل نفسه، ولم يعد لديه ذلك الايمان اليقيني المتماسك الصلب الذي يسنده ويسعفه في محنته، لقد فقد يقينيات الدين القادرة على وقايته من اعاصير الشك وعواصف المروق، فبات يرى نفسه علامة استفهام كبرى على هذه الارض يحار في الحصول على الجواب الشافي عليها.

وحتى أولئك المحسوبون على الصف الايماني، فان إيمانهم ليس من القوة بحيث يستطيع ان يعينهم على مجاوزة تحديات المادية المعاصرة.. إنها الفتنة العمياء، والداهية الدهياء التي يصبح فيها الانسان مؤمناً ويمسي كافراً، او يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، وهذا النوع من الايمان النصفي المتذبذب لا يجدي إطلاقاً في إنقاذ الانسان من الهلاك الدنيوي والأخروي معاً.

* * *

فالمنقذ للانسان من هلاك «اللاّ جدوى» ومن سموم «العبثية» القاتلة، إنما هو إيمان عميق لا حدود له، في اخروية لا حدود لها كذلك.

هذه الاخروية التي تمنح الوجود العام، ووجود الانسان بشكل خاص، معناه ومغزاه، وترسم له رسالته، وتعين مهمته في هذه الحياة، وتبعث الامل في الانسان اليائس المكروب. وتوجّه احاسيس وجدانه جميعاً في اتجاه مسؤوليته أمام الله تعالى، وأمام نفسه والعالم، وتفهمه الاّ شئ مما يؤديه يمضي الى بحر العدم، او يجري الى شاطئ الضياع والنسيان، لا شئ يذهب سدى، او يتحول الى هباء، بل كل شئ محفوظ في ذاكرة الزمن، ومسجل في سجل الاخروية، يلقاه هناك عندما يعود اليها، ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومَن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾.

فالقرآن الكريم حين يؤكد على «الاخروية» ويكثر من ترددها في سوره وآياته، يفعل ذلك من أجل ان يشدّ الانسان المسلم اليها، فلا يعتوره الفتور، او تنتابه الغفلة، فيقع في «اللامبالاة» أو «العبثية» التي تفرغ الايمان من محتواه، وتخلفه جسماً بلا روح، وشكلاً بلا مضمون.

فلم تعد المسألة الأكثر إلحاحاً في هذا العصر كون الاسلام يحرر الانسان من استعباد المال والجاه والسلطان، وكونه قادراً بمضامينه الاقتصادية والاجتماعية على توفير المأكل والملبس والمسكن لأتباعه من غير ان يكلفهم مقابل ذلك شيئاً من حريتهم وكرامتهم، لقد غدت هذه القضايا من كثرة ماجئ عليها من البراهين والأدلة ومن شواهد التاريخ من بديهيات الاسلام التي لم تعد في حاجة الى مزيد دليل او برهان.

ليس هذا ما تحتاجه البشرية اليوم من الاسلام، فربما استطاع اي نظام ارضي ان يفعل ما يفعله الاسلام من توفير الكفاية والعدل لابنائه. ولكن الذي لا يستطيع ان يفعله اي نظام ارضي إنما هو إنقاذ الانسان من براثن العدم، وتخليصه من الرؤية العبثية للوجود، وما عدا «الدين» فإن أي نظام ارضي يعجز ان ينسب لنفسه هذه المهمة العظيمة والجليلة.

فالقضية الكبرى التي تهون قبلها وبعدها كل قضية إنما هي حلّ لغز الموت، وما سيؤول اليه الانسان بعده، فالموت وما بعده هو القضية الاساسية الملحة التي ينبغي ان تحتل الاولوية من اهتمامات الانسان ومن تفكيره، ومن اهتمام المعنيين بالانسان وبمصيره، واي إغفال لهذه المسألة او تجاهلها إنما هو غش للانسان واستهانة به وبمآله ومصيره، وخيانة عظمى لا ينبغي للمخلصين من المفكرين ان يقترفوها بحق الانسان والانسانية.

لقد تحدى «الدين» الفلسفة المادية ومذاهبها، وطالبها بتفسير واضح لما يحس به الانسان من شوق للخلود، ورغبة في البقاء والأبد، لان هواجس الانسان وأشواقه – السامية منها والهابطة – لا يمكن ان تكون لشئ غير موجود او متوهم، فنحن نحس برغبتنا في الطعام لان الطعام موجود فعلاً، ولو لم يكن موجوداً لما احسسنا هذا الاحساس قط. ونحن نعطش

ونشتاق الى الماء لان الماء موجود فعلاً، ولو لم يكن موجوداً لما احسسنا مثل هذا الاحساس ابداً، فالانسان لا يرغب في شئ غير موجود، اي لا يرغب في العدم ولا يشتاق إليه، فما دام يشتاق الى الخلود، ويرغب فيه، ويتمناه، فالخلود إذن موجود. اي ان «الآخرة» موجودة، وربّ الآخرة موجود ايضاً.

إن عجز «المادية» عن الاجابة على هذه التساؤلات كان لا بد له ان يحدث في نفس الانسان – في كل مكان من الارض – تصدعات وشروخاً تركت فيها فجوات سهلت للتفجرات الايمانية المكبوتة ان تجد طريقها الى السطح، وهي وإنْ اخذت مسارات عديدة، وتشكلت بأشكال مختلفة تبدو وكأنها بعيدة عن اي هاجسٍ إيماني إلاّ انها في حقيقة الامر تفجرات إيمانية ضلّت سبيل التعبير عنها، والإفصاح عن مضمونها وحقيقتها، شأنها في ذلك شأن الطفل يبكي ويصخب ويثور لانه عاجز عن الافصاح عما يريد. وهذه التفجرات الايمانية، وإن كانت لم تبلغ ذروتها بعد، فهي ستبلغها عاجلاً او آجلاً، وسيحسن الانسان التعبير عنها والإبانة عن مضمونها، بشكل عفوي ومباشر في العقود القريبة القادمة من السنين إن شاء الله كما تنبئ عن ذلك حوادث الدول، ووقائع الشعوب في هذه الايام.

فالانسان إذن والمسلم بشكل خاص، في حاجة اليوم الى المفكر الديني الذي يستطيع ان يخلصه من بؤس «حسه الاخروي» ومن جفاف عوده، ويبس عروقه، وان يتوجه بكل طاقاته الى اساسيات الايمان في الانسان، فيحرك حسه الاخروي، ويعيد إليه الخضرة والرواء، ويعمل على تثقيفه وتهذيبه مما علق به من أدران الدنيا، ومدّه بالمجسّات الحسّاسة التي تجعله

مرهفاً شديد الارهاف، حاساً شديد الحساسية، يهتز كعقرب البوصلة مؤشراً اي انحراف في النية والقصد يحبط العمل وينأى به عن القبول في دار الخلود، فيجهد المسلم عند ذلك في تخليص اعماله، وتنقية سلوكه من اية شوائب دنيوية، فتأتي خالصة مخلّصة لتصب في بحر الزمن الاخروي حيث يلتقيها على شاطئيه في انتظاره حين يتجاوز به الموت زمانه الدنيوي القصي.

وقد استطاع «النورسي» رحمه الله تعالى ان يشخص أزمة المسلمين منذ البدايات الاولى لهذا القرن، وعزاها الى فقدان القابلية الحضارية فيهم على التواصل ومواكبة الزمن، بسبب تعطل المحرك لهذه القابلية بخمود لهب التوق للانعتاق من أسر «المحدود» والامتداد بافكارهم واعمالهم في «اللاّ محدود» وبهمود حماسهم في كسر قيد الزمن الدنيوي عن افكارهم واعمالهم بحيث تكتسب شرف الامتداد في الزمان الاخروي الذي تصب في حافظته جميع الاعمال والازمان، ولم يعد الخلود هاجسهم الاول ومحركهم الدائم في العمل والفكر، فلم يبدعوا مثلما كان يبدع أوائلهم، ولم يستطيعوا ان يضيفوا في الفكر او العمل شيئاً مهماً يمكن ان يسجل باسمهم خلال هذا القرن.

فالسقوط في هاوية «المحدود الدنيوي» وضيقه، والوقوع في أسره، منع بصيرتهم من رؤية «غير العادي» في «العادي» المكرور نفسه، ومن رؤية «غير المألوف» في «المألوف» المكرور نفسه، وهل مفتاح العلوم والمعارف إلا هذه النظرة الثاقبة في غير العادي من خلال العادي، وفي غير المألوف من خلال المألوف..؟!.

يقول النورسى في مثنويه:

« اعلم ! ان من أعمّ اسباب ضلالة فكر البشر : ظنُّ المألوف معلوماً، مع ان الألفة تتضمّن الجهلَ المركب، فبحُكمِ الألفة لا يتأملون في العادّيات المستمرة مع انها كلها خوارق معجزات القدرة، وما يُمعنون النظر الا في ما فوق العاديات من نوع التجليات السيالة، كمن لا ينظر من مجموع البحر – مع ما في بطنه من الحيوانات – الا الى تموّجاته بالهواء وتلألئه بشعاعات الشمس. فيستدل بهذين الحالتين فقط على عظمة مالك البحر وصانعه جلّ جلاله ».

فالنظرة الايمانية التي ترى العالم من صنع خالق مقتدر لا بد لها أن تبحث عن سر الخلق فيما يحيط بها من اشياء، لانها ترى كل شئ جديداً وكأنه قد خرج للتو من يد القدرة، فهو جدير بالنظر والتأمل والتفكر مهما بدا عادياً ومألوفاً، فكل شئ يولد جديداً جدة اليوم الجديد، وهو جدير ان يصبح موضع نظر المسلم وتأمله، وكشف سر الخالق فيه.

غير ان المسلم وإن كان ما يزال محتفظاً بايمانه إلا انه قد فقد حماسه في اكتشاف سر الايمان وآثاره فيما يحيط به من اشياء، وفيما تنطوي عليه الارض من اسرار، ويمور به الكون من مجاهيل، وبفقدانه لهذا الحماس فقد بذرة التحضر، واضطر ان يستظل بسقف حضارات غريبة عن تكوينه العقلي والوجداني، الأمر الذي جعله يعجز عن الايغال في روحها، والنفاذ الى سرها، فاكتفى منها بالهامش من فكرها وعلمها ومعرفتها.

لقد جرّد « النورسي » قلمه للجهاد على جبهتين:

فاستطاع على واحدة من هاتين الجبهتين ان يدحض مفاهيم غريبة عن تكوين المسلم العقلي والوجداني تسربت الى ذهنه عن شعور منه او عن غير شعور، وهي بالتأكيد مفاهيم وثنية تفسد توحيده، او تجرده منه،

كالذين نسبوا للطبيعة – كما يفعل عموم الاوربيين – صفات الخلق والايجاد، وهي صفات من اخص خصائص الالوهية والربوبية.

وعلى الجبهة الثانية حاول ان يؤجج حماس المسلم الهامد، ويثير رغبته في الكشف والتنقيب، وان يبذر في نفسه بذرة التحضر، فلفت إنتباهه الى ان ما يبدو مألوفاً في النظرة الأولى إنما ينطوي على سر الخلق، وعجيبة الايجاد، وان كل شئ في هذا الوجود من حبة التراب على الارض الى غبار السدم والمجرّات في السماء، يصلح ان يكون موضع دراسة وتأمل، وانّ ما من شئ إلا وتتظاهر فيه اسرار إلهية عظيمة، وصفات ربوبية مطلقة، كالعلم والحكمة والقدرة، وان اسماء الله الحسنى هي التي تحرك الوجود، وتمنح الحياة، وترسم للطبيعة قوانينها، وتهب للكون نواميسه.

ولما كان علم المسلم وحكمته وقدرته نسبية بالقياس الى علم الله تعالى وحكمته وقدرته المطلقة لزمه – اي المسلم – إذا اراد ان يبدع ويبتكر ان يتواصل بشوق وحماس مع المطلق الالهي الفاعل في الموجودات، وان يفتح عقله لفهم نواميسه التي تتخلق الاشياء بموجبها، ويهئ ذهنه لكي يتقد بشرارته ويضئ بنوره، فتتفجر لديه طاقات التفوق والابداع نابعةً من تلافيف فكره، ونسيج وجدانه، فيتعايش معها كجزء مهم من كيانه، دون ان ينتابه ذلك الشعور بالغربة عنها كما هو حاله مع افكار الغرب ومفاهيمه.

إنّ القرآن الكريم يشدّ المسلم بمطلق علم الله وحكمته وقدرته، ويحاور فكره ووجدانه ملفتاً نظره الى نفسه التي بين جنبيه وما تنطوي عليه من كونٍ نفسيٍ يضاهي بعظمته عظمة الكون خارج النفس، ثم يشير الى الوجود المنبثق من العدم بعلم الله وحكمته وقدرته، ويحثه على ان ينفذ بنظره فيه بحثاً عن معالم هذا العلم، وآثار تلك الحكمة والقدرة،

فالموجودات والكائنات إنما هي كلمات الله المجسمة، وآياته الشاخصة في كتاب الوجود، ما يكاد يلمسها وينكت فيها حتى تنبثق منها ينابيع الايمان، وتنبجس منها الدلالات على وجود الله تعالى.

وقد ذكر «النورسي» هذه الحقيقة واسهب في توكيدها، وضرب عليها الامثال، وعرض نماذج من اكثر الاشياء أُلفة، وبيّن ما تنطوي عليه من عجائب الخلق وسر التكوين.

فما من شئ لامسه قلمه وحفر فيه إلا وفجّر من خلاله معاني الايمان والاسلام، وما من شئ وقع تحت سنّ قلمه إلاّ وتدفق منه سرّ الايمان، وحقيقة الايقان كعصا موسىٰ إينما ضرب بها موسى عليه السلام – حتى في اشد الصخور صلابةً – تفجر الماء وانبجست منه العيون. يقول النورسي في مثنويه:

«اعلم! ان الفرق بين طريقي في «قطرة» المستفادة من القرآن؛ وطريق اهل النظر والفلاسفة، هو اني احفر اينما كنتُ، فيخرج الماءُ، وهم تشبثوا بوضع ميازيب وانابيب لمجئ الماء من طرف العالَم ويسلسلون سلاسل وسلالم الى مافوق العرش لجلب ماء الحياة، فيلزم عليهم بسبب قبول السبب وضع ملايين من حفظة البراهين في تلك الطريق الطويلة لحفظها من تخريب شياطين الاوهام. واما ما علّمنا القرآنُ فما هو الاّ ان أُعطينا مثل «عصا موسى» اينما كنتُ – ولو على الصخرة – اضربُ عصاي فينفجر ماءُ الحياة، ولا احتاج الى السفر الطويل الى خارج العالم، وتعهّد الانابيب الطويلة من الانثلام والانكسار»..

تغمد الله النورسي برحمته واجزل له الثواب، وغفر لنا جميعاً واعاننا على خدمة دينه، والحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على محمد خاتم الانبياء والمرسلين.

مناحي الفكر الإيماني
عند النورسي

لم يكن «النورسي» بعقله الحركي الجاد وبروحه العبقري اللهيف - ليكتفي بالتوقف عند صور الحقيقة الدينية، وأشكالها المظهرية المباشرة. ولم يكن حسبه مما يعرض له من مسائل الدين وقضايا الإيمان، أن يباشرها بلمسات عقلية كسولة تظلُّ طافية فوق السطوح ولا تتجاوزها الى الأعماق والجواهر والأصول.

بل كان ديدنه دائماً وأبداً، الوقوف على الحقيقة الدينية في مساحاتها الواسعة، وأمدائها البعيدة، ومعانيها العميقة، وقد فعل ذلك عبرَ معاناة فكرية وروحية ظلت تضرب روحه وفكره زماناً طويلاً ضربات مدوية جعلت تعصف بأنواء وجدانه، وتلهب بوارق روحه التي ما انفكت تضيئ له من حقائق الدين والإيمان ما بلغت عنده درجة الشهود اليقيني الذي لا يقين قبله، ولا يقين بعده.

لقد خرج «النورسي» بعد هذه المعاناة المضنية من ظلام هاويات هذا الزمن الجحود ببصيرة حادة نافذة، ينفذ بها الى عمق أعماق الحقيقة، ويسبر غورها، ويرصد أعقد حقائق الإيمان، وأصعب غيبياته، فلا يني يحل العقد، ويكشف عن الأسرار، ويبدد بالدليل والبرهان، ما يُتوهَّمُ فيها من إشكالات، أو يُتَخيَّلُ حولها من محالات، ويجليها للأذهان وقد

أنحلت عقدها، وسهل صعبها، ووضح غامضها، واستوعبها العقل، واعتقدها الضمير، واطمأن اليها القلب والوجدان.

و «النورسي» هنا، وامتثالاً لقوله تعالى في مخاطبة رسوله الكريم ﷺ وكل مؤمن معه ومن بعده: ﴿**فاعلم أنه لا إله الا الله**﴾ لا يقف عند المعاني المباشرة التي توحي بها كلمة التوحيد؛ أظهر مظاهر الاسلام، واكثرها تردداً على ألسنة المسلمين. بل يجهد فكره للحصول على «علم التوحيد» من خلال مطالعة صفحات الكون واستقراء كتابه والبحث عن جذور هذا العلم في صور الحياة واشكالها ودرجاتها في الكائنات الحية من نبات وحيوان وانسان، لأنه مقتنع تماماً أن أية حقيقة من حقائق كتاب الله المنزل على محمد ﷺ لابد أن تجد ما يسندها ويعززها في طوايا الكون كتاب الله المشاهد والمحسوس، فالبحث والتفتيش في هذا الكتاب لابد أن يوصل الانسان الى حقيقة التوحيد التي تنبئ عنها آيات الكون بسماواته ومخلوقاته وموجوداته.

وبالفعل فقد وضع «النورسي» أصبعه على شارة التوحيد وسكة الأحدية المضروبة على وجه كل حي وجامد في هذا العالم، وخلص في خواتيم ابحاث كثيرة الى نتيجة مهمة مؤداها:

إن اسناد «الخلق والأيجاد» الى الواحد الأحد هو أسهل سهولة مطلقة من اسناده الى الكثرة الكاثرة من شركاء الأسباب والطبيعة أو الآلهة المتوهمة، وذلك لأن الكثرة إما أن تكون متساوية في القدرة والعلم والحكمة التي هي من مستلزمات الخلق والأيجاد أو متفاوتة...

فان كانت متساوية فأن قدرة أحدها وعلمه وحكمته تغني عن مجموعها، فيبرز هنا كذلك الواحد المؤثر في الخلق بينما يبطل عمل المجموع إن افترضنا جدلاً أنَّ لهم عملاً مؤثراً..

وان كانت متفاوتة؛ أي: يوجد في هذه الكثرة المفترضة مَنْ هو قادر، ومَنْ هو أقدر، ومَنْ هو عالم ومَن هو أعلم، ومَنْ هو حكيم ومَنْ هو أحكم، فلا مناص في هذه الحال من أمرين:

إما أن يخضع الجميع ويستسلموا لمن هو أقدر وأعلم وأحكم، وهنا يبطل أيضاً حكم الكثرة..

وإما أن يستقلَّ كُلٌّ بنفسه ليخلق ما يشاء كيف يشاء، وبذلك ستأتي المخلوقات في عماء من الفوضى والاضطرابات والتهافت، فينقص المصنوع بقدر ما ينقص صانعه من علم وحكمة وقدرة.. غير أن المشاهد الملموس هو خلاف هذا، إذ يشاهد على المخلوقات من النحلة حتى الفيل، ومن الذرات حتى المجرات الاتقان والانتظام، والقصد والغاية، وأسلوب خلق واحد، ومعجزة خلق واحدة، الأمر الذي يجعلنا نقول مع «النورسي»:

إن الذي لا يقوى على خلق نحلة مثلاً، لا يقوى على خلق السموات والأرض، ومَنْ لا يقوى على خلق ربيع كامل لا يقوى على خلق زهرة واحدة، لأن كل ما في الكون مرتبط بعضه ببعض ، فخالق النحلة هو نفسه خالق ما يتغذى به النحل، وما يتنفسه، وقس على هذا كل الكائنات والموجودات التي ترتبط حياة بعضها بحيوات بعضها الآخر، والتي يحكمها قانون الهي واحد هو لواحد أحد فرد صمد، مطلق القدرة والعلم والحكمة، كما هي اسماؤه الحسنى وصفاته الجلى.

وهو يستفيض في شرح هذه الفكرة في ثنايا العديد من رسائله، ويقربها الى الاذهان بما يضرب لها من الامثال حتى تغدو بديهية تلزم كل منصف الأيمان بالله الواحد الأحد الذي لا مثيل له ولا شريك، فيقول في كتابه «اللوامع»:

«ان الذي خلق عين البعوضة، هو الذي خلق الشمس ودرب التبّانة، والذي نظّم معدة البرغوث هو الذي نظم المنظومة الشمسية، والذي أدرج الرؤية في العين، وغرز الحاجة في المعدة هو الذي كحل عين السماء بأثمد النور، و بسط سفرة الأطعمة على وجه الارض».

فوجود الله تعالى واحداً متفرداً بالالوهية والربوبية، وكونه ـ جلَّ شأنه ـ عادلاً وحكيماً يقتضيان خلق الآخرة ـ كما يرى النورسي ـ هذه الآخرة التي ينتهي اليها الانسان بعد مغادرته الدنيا، لأن القاء الانسان الى الدنيا، ثم حبسه فيها من غير آخرة ينتقل اليها بعد موته، عمل عبثي غاية في العبث، وظلم لا أشدَّ ولا أقسى منه. والله تعالى منزه عن الظلم والعبث.

فالدنيا من غير الآخرة عبث مقيت لأنه لا يفضي الى شئٍ، كَمَنْ يقول لك: إزرع وارو ولكن لا تحصد، واستجش كل آمالك وأشواقك، ولكن دعها تمضي الى بحر العدم، واستخرج كل كنوز عقلك وروحك، وابتعث جميع لطائف قلبك، ولكن لا خلود يمنحها البقاء أو يفتح لها ابواب الديمومة والثبات، تعلّمْ وَألمَّ بالمعارف والعلوم، وكابد الأهوال الى الحق، وتشحط بدمك في سبيل الواجب، ولكن كل هذا هباء تذروه رياح الزوال، وأعاصير العدم.. عِشْ فاضلاً أو فاسقاً، كافراً أو مؤمناً، قاتلاً أو مقتولاً، أميناً أو خائناً.. فالنقائض والأضداد كلها سواء، الأسود كالأبيض، والخير كالشر، والحق كالباطل، والعدل كالظلم... الى آخر هذه النقائض، لأن لا شئ وراءَ هذه الدنيا يجازي ويثيب.. فأي عبث رهيب أشد رهبة من هذا العبث، وأي ظلم يسحق أخضر الانسان ويابسه مثل هذا الظلم...؟! تعالى الله وتنزه وتقدس عن أن يعبث أو أن يظلم..

وربما كانت «الآخرة» أسبق في الوجود من «الدنيا»، فقد درجت حياة أول بشري عليها قبل أن تعرف «الدنيا» حياة البشر، لا بل حياتها هي الحياة الحق، وهي الأعمق والأشمل والأعلى من كل ما عرفناه وجربناه من حيوات على هذه الأرض، وصدق الله حيث يقول: ﴿ **وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون** ﴾(العكنبوت: ٦٤).

فآدم عليه السلام ـ أبو البشر ـ فتح عينيه في جنة الآخرة، وجرّب العيش في أكنافها، الا أن طاقات آدم واستعداداته النفسية ظلت منطويةً في أعماقه لم يُتَح لها أن تتفجر ـ كما يشير النورسي ـ فلم يكن قد جرّب مكابدة الصبر على طاعة الله،.. فأمر به فأنزل الى أرض الدنيا ـ ارض الامتحان والاختبار ـ ليتعلم ويجرب ويكابد، وليتاح بذلك لاستعداداته وطاقاته أن تخرج من دور القوة الى دور الفعل، فيكابد الصبر على الطاعات كما يكابد الصبر عن العصيان، وأورث ذلك أبناءه الآدميين..

فالدنيا إذن دار امتحان واختبار، وهي البودقة التي تنصهر فيها النقوش البشرية لتظهر معادنها، فمن الظلم والعبث أن يتساوى في الأجر والجزاء معدن نفيس كالماس، ومعدن خسيس كالفحم، كما يقول النورسي.

وخلق «الآخرة» كما يقتضيه العدل الإلهي، فهو كذلك استجابة كريمة من الله الرب الرحيم لدعوات البشر بلسان الحال أو المقال وطلبهم البقاء والخلود ـ هكذا يقرر النورسي ـ كما هو تلبية اللهفات تلك الأشواق، وذلك الحنين الملتاع المتصاعد من أعماق الفطرة البشرية راغباً في التشبث بأسباب الباقي الأبدي الذي يملك البقاء والأبد، حتى إن الشيطان اللعين

لم يجد باباً لجر آدم وزوجه عليهما السلام الى المعصية الاّ باب هذه الفطرة المضطربة بحب الخلود في أعماقهما فوسوس لهما من خلالها قائلاً: ﴿ **ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين** ﴾(٢٠:الاعراف) فلشوقهما الى الخلود، وتهافتهما على البقاء، ارتكبا المعصية، وفاتهما أن الطاعة هي طريقهما الى هذا الخلود الذي ينشدانه.

لأن طاعة الله تعالى هي أعظم منابع الخير، والخير وجود دائم لأنه مرتبط بواجب الوجود، ويستمدّ منه، ويصب في عالم البقاء الذي يلتقيه الانسان بعد مغادرته الدنيا، بينما المعصية شرٌ، والشر عدم ـ كما يقول النورسي ـ فهو مرتبط به، ويستمد منه، ويفضي اليه في خاتمة المطاف، لذا احتاج الشرّ لكي ينطلق من نجى السلب الى فاعلية الأيجاب الى قوة رهيبة تدفع به الى سطح الاحداث، وهذه القوة الرهيبة الغاشمة يمثلها الشيطان بمكره ووسوسته خير تمثيل، فهو يدفع عجلات شره باتجاه تدمير روح الانسان، وهدم وجوده، فالشر مهما كان جزئياً الا أنه يحدث من الدمار والخراب ما هو مخيف وخطير. الأمر الذي يضطرنا أن نكون على حذر دائم بحشد جميع قوانا الخيرة لنقوى على سد كوى النفس التي يمكن أن تدلف منها هذه القوة الرهيبة المدمرة.

واعتماداً على هذه المقدمات كون «النورسي» نظريته في اعتبارية الشر، واسبقية الخير عليه، وأن وظائفه مهما بلغت من الضراوة في مصارعة الخير، فهي ضرورية لتحفيز قوى الخير، وتفجير طاقاته الخامدة في الانسان والعالم، وهو بهذا ينفع من حيث يُظَنّ أنه قد أضرّ.

فالنفع والضرُّ نسبيان وليسا مطلقين، فرُبَّ ضارٍ من جهة نافع من جهة أخرى، وربَّ نافع من وجه قد يضرُّ من وجه آخر.

ولكون الانسان ابن حاضره ويومه وساعته لذا فهو عاجزٌ بالضرورة عن فهم حِكَم ما يقع به من مكاره أو مرضيات كما يرى «النورسي».

فقَد ينطوي خيرٌ كثير فيما يبدو لنا وكأنه شرٌّ نازلٌ بنا، وما نراه بنظرنا القاصر المحدود وكأنه ظلم نازلٌ بفلان أو علان قد يكون هو العدل والانصاف عينه، تماماً كما تشير الآية الكريمة: ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌّ لكم** ﴾.

فالقدر يحيط بماضي الانسان وحاضره ومستقبله، أي بما كان، وبما هو كائن، وبما سيكون، فتأتي مقدراته واقضيته متطابقة مع علم الله بما يحتاج اليه هذا الانسان من صفعة تأديب، أو صرخة تنبيه، أو لمسة حنُو.. أو.. أو.. الى آخر هذه المقدرات السارَّة أو المؤلمة المنزهة عن الظلم والشر، بل هي العدل كله والخير كله.

لأنَّ جزء الاختيار الذي يملكه الانسان هو مناط التكليف، وهو المقصود بالمحاسبة.

وقد طولب الانسان بناءً على هذا الجزء الاختياري الذي يملكه، بالأيمان والعمل وحُجبَ عنه «علم الله» بما سيفضي اليه من سعادة أو شقاء في الآخرة.

ولا يتصورنَّ أحد أنَّ القدر يخبط الناس خبط عشواء بلا قصد ولا هدف، فيسعد أناساً ويشقي آخرين، ويعلو بأشخاص ويهبط بغيرهم، ويغني هذا ويفقر ذاك، ويخترم حياة فلان ويطيل في عمر علان، ويسحق أفراداً ويشمل بالرحمة آخرين، هكذا اعتباطاً بلا غاية ولا قصد.

أو أن القدر يأتي نتيجة مناقضة لجميع مقدماتها، أو مُسبّباً مقطوع الصلة بسببه، أو معلولاً لانسب له بعلته.. فهذا تصور للقدر سطحي وساذَجٌ غاية في السطحية والسذاجة، فضلاً عن أنه يقدح بالحكمة التي أُرْسِيَ على اساسها العَالَمُ. فالقدر ـ كما يقول النورسي ـ مرتبط بالسبب والمسبّب، وبالعلة والمعلول.

فبذرة الجنين في رحم أمه تحتوي على خارطة مقدراته منذ مولده حتى مماته، كما ترتسم خارطة مقدرات الشجرة في بذرتها أو نواتها ـ كما يقول النورسي ـ وهي مقدرات موجودة بالقوة ولا تخرج بالقوة ولا تخرج الى الفعل إلا بارتباطها بالاسباب والعلل، لأن الأسباب والعلل هي جزء لا يتجزأ من هذه المقدرات ـ كما رأينا ـ تلازمها ولا تنفك عنها، بل تمضيان معاً في دفع حياة الانسان في السبيل المخطط له في علم الله.

ولأن علم الله محجوب عنا. ولأننا نملك حرية الاختيار. لذا فنحن مسؤولون ومجازون بما نفعله من خير أو نقترفه من شر

ولكن ليس للانسان أن يتيه فخراً بما يأتيه من أعمال البر والتقوى ـ كما يقول النورسي ـ لأن القدر قد أودع في بذرة حياته مقدرات الخير والاستعداد له. بل عليه أن يشكر القدر على عطائه ونعمائه... أما إذا اختار إقتراف الشر بما يملك من كوامن الاستعداد له، فيكون بذلك قد وضع نفسه في موضع الحساب والمسؤولية، وليس له أن يلقي بتبعات انتكاسه في الشرعلى القدر، لأن القدر منحه حرية الاختيار، ولم يلزمه بفعل ما يعلم أنه سيفعله.

والقدر بعد كل هذا الذي استعرضناه من شؤونه، هو ملح الأرض، فبدونه تأسن الحياة البشرية وتركد وتتعفن، فالمقدرات تحرك رواكد البشر،

وتهز سواكنهم، وتقلق طمأنينتهم الى أحوالهم، وتبتعث فيهم المطامح والآمال، وتدفع بهم الى معترك الصراع من أجل السبق والتفرق.. فمن مضطرب مآسيهم وأحزانهم، ومباهجهم ومسرّاتهم، ومن صراعات أقدارهم بعضها مع البعض الآخر، تتلاقح الافكار، وتحتدم المشاعر، وتنقدح أزندة العقول والأفهام، فنجم من بين ذلك ابطال العقيدة، وعباقرة الأيمان ليقودوا تيارات الخير على هذه الأرض، وليحركوا التأريخ في اتجاه الانتصار على مواطن الضعف في الانسان التي هي مبعث كل شر في هذا العالم.

ولعلَّ سائلاً يسأل هنا: لماذا القدر..؟ ولماذا الانسان الذي يرتبط به القدر إرتباط اللازم بلازمه..؟ أو بالاحرى لماذا الخلق والايجاد أصلاً..؟ ولماذا الكون والكائنات..؟ والوجود والموجودات..؟ ما سرّ ذلك وما حكمته..؟!

وأمثال هذه الاسئلة عن سرّ الخلق ومغزى الوجود والحياة هي مثار اهتمام رجال الفكر والعلماء بمختلف اختصاصاتهم، وشتى معارفهم، من قديم الزمان وحتى هذا اليوم..

وقد ذهبوا في تفسير ذلك مذاهبَ شتّى ـ لعل أسوأها وأبعدها عن العقل والمنطق ذلك المذهب الذي ينسب الخلق والايجاد الى تراكمات الصدف والتطور الطبيعي، والذي يجلس الانسان فوق قمته من دون تدخل الله سبحانه وتعالى الذي ابتني هذا المذهب بالاساس على إنكار وجوده.

ولكنّ إنساناً تمضي به الطبيعة لتجلسه فوق قمة تطورها، ثم تتركه هناك فوق القمة خائفاً يترقب، تحيطه الوحشة، وتتغشاه الريبة، يحمل على

كاهله هموم زمانه، وأحزان عيشه، وتثقله الأشواق التي لا يعرف أين يتوجه بها، تدميه الجراحات، وتكويه العذابات من غير سند يسند اليه ظهره، ومن غير يد تمسح عنه الجراحات، وتدفع عنه سهام الأعداء. ومن دون معين يطلب العون منه، ومن دون متلق يتلقى اشواقه ويسمع هتافه ونداءه..

إن انساناً من غير الله ـ كما يبشر به هذا المذهب ـ هو إنسان ضائع وتائه في هذا الكون ـ كما يقول النورسي ـ تعاديه الكائنات، وتجافيه الأرض والسماء، ويستوحش منه الشجر والحجر والمدر، والوحش والطير والدواب، لأنه ليس بينه وبين خالق هؤلاء جميعاً سبب، كذلك الأعرابي ـ ولا مشاحة في المثال ـ الذي يريد قطع المفاوز من غير أن يعرف له احد قبيلة أو نسباً يحتمي بهما ويردان عنه كيد اللصوص، وقطاع الطرق..

أما مذهب «النورسى» في سرّ الخلق، فهو مذهب يكاد ينفرد به. لم يسبقه اليه أحد ممّن كتب في علوم الأيمان على قدر ما أعلم.. وهو مذهب فيه من عفوية البداهة وصدق الحدس ما يرشحه لكي يكون الجواب الشافي على جملة الأسئلة المطروحة في سرّ الخلق والإيجاد..

فهو يرى أن كل جميل يحب جماله ويحب أن يراه وأن يريه غيره..

وأن كل صاحب صنعة يحب صنعته ويحب أن يراها ماثلة أمامه وأن يريها غيره...

وأنّ الرسام الذي تموج نفسه بعلوم فنه، وجمال أحاسيسه، ورهافة مشاعره، لا يسأله أحد عن سرّ إبداعه في فنّه، أو عن حكمة ما ترسمه ريشته وألوانه من لوحات، أو يحفره إزميله من مجسمات فوق الصخر الأصم.

فإذا كان الأمر هكذا ـ وهو هكذا فعلاً ـ فكم يبدو فضولاً لا معنى له إذا نحن أردنا من الخالق البارئ المصور أن يشبع فضولنا ويخبرنا عن قصده ومغزاه فيما يخلق من خلق، ويوجد من موجودات.. والذي يريده الله أن يعلمه انه تعالى منزه عن اللهو والعبث، وأنه لم يخلق شيئاً إلا لقصد وغاية.. فكل جمال مشاهد في هذا العالم إنما هو ومضة من ومضات اسمه «الجميل».. وكل مخلوق وكائن إنما هو لمسة من لمسات اسمه «القدير».. وكل حي إنما يستمد حياته من اسمه «الحي».. والموجودات قاطبة تستمد وجودها من اسمه تعالى «الموجود».

فأسماؤه الحسنى تتجلى على مرايا العوالم والأكوان التي تعكس أنوارها في عيون الموجودات، فتشاهد الموجودات بهذه الأنوار بعضها بعضاً، ويرى كل واحد منها في الآخر حجة الله وآيته على وجوده... ثم يأتي الانسان، المشاهد الأعظم بعينه الكونية الكبرى، فيرى ويعجب ثم يذهل ويشده، ثم يستهول ويستعظم، ثم يحمد ويسبح ويقدس ويخر ساجداً أمام مَنْ له الخلق والأمر.. هكذا يرى «النورسي» بداهة الخلق وعفوية الأيجاد من غير تكلف أو تفسلف.

واذا كان الانسان مازال يحتفظ بجهاز نفسي سليم غير معطوب او ممسوخ، فأنه قادر على استقبال اشارات الكون وإيماءاته، والتقاط شفرات الحياة ورموزها التي تُري هذا الانسان بأنها كلمات وسطور في كتاب الكون الاعظم الذي يضع الله سبحانه وتعالى اسمه «الخالق، البارئ، المصور» على غلافه، ويترك ختمه وبصمات يده الصناع فوق وجه كل حي وجامد في هذا العالم، فمشاهدة ذلك تبتعث فيه الأشواق الى معرفة الله، ومعرفة فعاله في الموجودات، وتأثير أسمائه وصفاته فيها، فيحس من

حيث كونه موجوداً ـ كأي موجود آخر ـ بالأنتساب اليه، واللجؤ اليه، والتوجه نحوه، وطلب العون منه... ثم يلتفت الى ما يبثه وجوده من إشارات، وما تومئ ذاته من إيماءات، فيعترف من خلال ذلك على فقره وعجزه وجهله وضيقه ومحدوديته بأزاء قدرة الله المطلقة، وعلمه المطلق، وسعته المطلقة، أو بالاحرى إدراك مطلق صفات الله وأسمائه مقابل محدودية صفاته ونسبيتها.. ويظل يرقى في سلم هذه المعرفة الإلهية درجةً بعد درجة حتى يصل الدرجة التي يجد فيها نفسه وقد غدا الكون أنيسه، والموجودات روحه وريحانه، والكائنات صديقه تبادله الودّ والمحبة، غير أنه سيرى كلَّ أولئك حرفاً لامعنى له مالم يعطه الله تعالى معناه ومغزاه، وقفراً بلقعاً من غير رحمة الله التي ما مست شيئاً إلاّ إخضرَّ وأخصب كما يقول «النورسي»..

وربما يُسَخِّرُ الله بعض جوانب الكون، أو يأمر بعض الكائنات بطاعته والامتثال لأمره، وما معجزات الأنبياء والرسل الا من هذا القبيل.. وهذه المعجزات بالإضافة الى مقاصدها الدينية المعروفة، فهي إعلان صريح، وصفعة قوية على وجوه اولئك الأقوام الذين يتعبّدون الأسباب الطبيعية وينسبون اليها الخلق والايجاد ـ كما يرى النورسي ـ فالمعجزة تثبت بأن قوانين الطبيعة ما هي الا قوانين إلهية يمكن كسرها ومزقها بأمر من الله ومشيئته، أي أنها ليست خالقة بل مخلوقة وهي لا تملك من أمرها شيئاً، بل أمرها كله بيد الله يقلبه كيف يشاء..

ولعلَّ الكون لم يُسَخَّرْ لأحد من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كما سُخِّرَ لنبينا محمد ﷺ ولاسيما في معراجه، هذا المعراج الذي يكرس له «النورسي» رسالة خاصة، مبيناً دلالاته ومغازيه للمسلمين ولغيرهم.

ثم إن حافظة الكون ـ كحافظة الانسان ـ تنطوي على صورة وسيماء كل موجود بعد موته واندثاره، فموته لا يعني انعدام وجوده نهائياً كما يبدو لأول وهلة، فهو موجود بدرجة من الوجود في مخيلة الكون. فكما تحتفظ ذاكرة الانسان بصور الموجودات واطيافها ممَّنْ كان يرافقها ويعايشها إذا هي ماتت وتوارت عن الانظار، كذلك ذاكرة الكون تظلُّ محتفظةً بصور الاشياء وسيماها –كما يرى النورسي– فإذا هي بعثت من جديد تبعث على صورتها المحفوظة في عقل الكون للغرض نفسه الذي أوجدها الله من اجله.. فموت مئات الألوف من أنواع الحشرات والنباتات في فصل الشتاء ثم عودتها بأعيانها، أو بأشباهها ومثيلاتها الى الحياة من جديد في فصل الربيع، هو في الحقيقة نموذج مصغر للبعث والنشور يتكرر أمام انظارنا كلَّ ربيع كي يذكرنا بالبعث الأكبر الذي سينهضنا من الأجداث لمناقشتنا الحساب، لأنه ليس من المعقول أن يشذَّ الانسان ـ وهو أرقى مخلوقات الله وأسماها حياةً ـ عن أن يبعث من قبره وبذاته، ولاسيما وأن مخلوقات أدنى منه مرتبةً في سلم الحياة تبعث بعينها وبذاتها إذا جاء ربيع بعثها...

* * *

قاعدة
الأسماء الحسنى

لم يكن «الغزالي» (٤٥٠- ٥٠٥ هـ) ليترك بصمات عقله الكبير، وآثار روحه العظيم على جيله في عصره، وعلى أجيال العصور المتلاحقة بعد عصره حتى يومنا هذا، لو لم يقم بتلك الرحلة المثيرة، والمغامرة الروحية الخطرة - التي حدّثنا عنها في كتبه - حيث نشر أشرعة روحه وأقلع مبحراً على متن التجربة والمعاناة، من الحافّات الاولىٰ للمعرفة، ومن شواطئ الايمان الضحضاحة، الى الأمداء الايمانية الشاسعة البُعد، والمعارف الالهية العميقة الغَور، ولو لم يكنِ يمتلك روحاً قوياً طويلَ النَفَس قادراً على مطاولة اللجج الايمانية وسبر أغوارها، والغوص فيها، والانغمار التّام بمعارفها وأسرارها.

ولا نكشف سراً حين نقرر بأنّ المعارف الأسلامية عموماً منذ عصره حتى يوم الناس هذا متأثرة - قليلاً أو كثيراً - بالتيارات الفكرية والروحية لهذا المفكر العملاق الذي ترك ظلال روحه وعقله وقلبه على كل ما كُتِبَ في الفكر الاسلامي من بعده.

و«النورسي» (١٢٩٤ - ١٣٧٩هـ) يؤكد هذه الحقيقة في بعض رسائله، ويبين بجلاء أنه مَدين للغزالي بمنابع معارفه الاولىٰ، وأصول منهجه في الكتابة والتفكير، ويوضّح أنه سلك سلوكه، وسار في الطريق الوسط بين «العقل والقلب» التي سار فيها الغزالي من قبله فيما تناوله من شؤون الفكر والايمان.

ولئن كان «النورسي» قد أبحر الى الشواطى الايمانية الشاسعة البُعد التي أبحر اليها «الغزالي» وغاص الى أعماق المعارف الالهية التي غاص فيها، ونَهَل من المنهل نفسه، وشرب من المشرب عينه، كما يشير الى ذلك في رسائله، إلاّ أننا ينبغي ألاّ نغفل في معرض المقارنة بين الرجلين عن الفاصل الزمني الذي يفصل بينهما؛ فهناك ما يزيد على ثمانية قرون مليئة بالأحداث الضخام التي أسهمت في قيادة الكثير من مسارات التيارات الفكرية والروحية نحو انحرافات خطيرة، وتقهقرت بالعقل المومن نحو متاهات رهيبة من الريب والشكوك، فنجمت – من جراء ذلك – معضلات جديدة، وظهرت مشكلات عانىٰ منها الايمان اشدّ المعاناة، وقاسىٰ منها المؤمنون أشدّ المقاساة، وقد حملها تيارُ هذه القرون الثمانية والقىٰ بثقلها في قعر العصرالذي كُتبَ علىَ «النورسي» أن يواجهه، وأن يقبل تحدّياته، وهو عصرٌ طغت فيه المادية العمياء الىٰ أقصىٰ حدود الطغيان، واستشرت الشكوك، وأزريَ بالايمان، وأصاب الروحَ الخواءُ، وغدا «الايمان» مسألةً قديمةً لا تثير الا إهتمام القلة من الناس، فتتابعت الخطوب، وأطبق على الشعوب ليلٌ دامس الظلمات يريد اطفاء آخر ذبالة مرتعشة من مصباح الايمان، ثم أقبلت الفتن كقِطَعِ الليل المظلم، يأخذ بعضُها برقاب بعض، حتى ان الانسان ليصبح مؤمناً ويُمسي كافراً، ويصبح كافراً ويمسي مؤمناً كما تنبأ بذلك رسولُنا الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، وهذا كله ادىٰ الى أن يشك الانسان في وجوده، أو بالأحرى في مغزى هذا الوجود ومعناه والقصد منه، وغدا عبثياً يرىٰ العبثية تسربل الوجود بأسره، وتغطي الأكوان جميعها، وان الانسان المسكين ليس اكثر من شئٍ مُلقىٰ في ركن من أركان الوجود، ينوح على

نفسه، ويشكو الغربة والضياع ولا يعرف من أين أتىٰ؟ وإلىٰ أين يمضي؟ وكيف ولماذا؟

النورسي وتحديات العصر:

وكان لا بد لهذه المعضلات الروحية الجديدة التي أتى بها العصر الحديث من منهج جديد وجرئ يواجه به «النورسي» هذه المعضلات ويعمل على حلّها، ويعين الانسانَ علىٰ التغلب عليها، والخروج منها سالماً معافىٰ.

وقد لاحظ الدارسون للنورسي أن ثمةَ انسانين هما دائماً موضع نظره، ومحطّ اهتماماته ودراساته في كل رسائله ومؤلفاته، يحاورهما ويطارحهما الرأي والفكر، ويناقش مشاكلهما وقضاياهما، ويعالج ما يشكوان منه من أمراض الفكر والروح، ويتوجّه اليهما بالنداء، ويقصدهما بالخطاب، وهذان الانسانان النموذجان هما:

الانسان الاول:

انسان ضال تائه في دروب الأفكار والمعتقدات، وقد احتجب عن الحق بستائر صفيقة من التصورات والأوهام، واحتجب الحقُ عنه وراء أبخرةٍ من ضباب الحضارات، وضلال المدنيات، فهو لا يدري أين الحق، وأيُّ السبل تفضي اليه، وتُوقِفُ عنده. فمهمة «النورسي» إزاءه أن يمدّ اليه يده، ويعاونه في كشف الحجب، وإزاحة الستر، وتجلية الحق، وإبرازه في إطار من اليقين الذي لا تشوبه شائبة شك، أو يخالطه غَبَشُ وَهْمٍ، فاذا هو موقوف علىٰ محجّة الايمان، وصدق الاعتقاد، وصحة اليقين.

أما الانسان الثاني فهو:

إنسان مؤمن، ولكنه مهزوز الايمان، هشّ الاعتقاد، ضعيف اليقين، تُساوره الشكوك، وتقلقه الوساوس والظنون، ينقصه وضوح الرؤية، وشفافية النظر، وسكينة الاطمئنان، متردّد في تحمل مسؤوليات إيمانه، وتكاليف تصديقه. فمهمة «النورسي» هنا أن يدلفَ الى عالم هذا الانسان بهدوء، ويسارع في ترميم ما تصدّع من بنيان إيمانه، ويقيم ما تهدّم من أركان يقينه، ويرفو ما خَلِقَ من ثوب اعتقاده، ويقوي ما تزعزع من أسس تصديقه، ويجلي ما غام عليه من مسائله، وينير ما أظلم عليه من دروبه، لينتفض – بعد ذلك – منسلاً من قوالب نفسه بين ركامات الروح وانهيارات النفس، معافى الايمان، راسخ الاعتقاد، ثابت اليقين، موصول القلب بالله، يقظ الوجدان لا يغفل.

واستحضاره لهذين النموذجين من البشر في ذهنه عندما يشرع في الكتابة، منهج التزمة «النورسي» في رسائله جميعاً، ولم يَحِد عنه أبداً، ومع ذلك فان هذا المنهج ليس من ابتداع «النورسي» أو ابتكاراته، وإنما هو في الأصل – منهجٌ قرآني اعتمده القرآن الكريم في معالجاته لقضايا الانسان والايمان، وقد تأثر به «النورسي» غاية التأثر، وأشربتْهُ روحُه، ومازج شغاف قلبه، وخالط دم وجدانه من كثرة مداومته النظر في القرآن، والجلوس متأدباً بين يديه، والتلقي عنه مباشرة، فلا غروَ إذا ما ترك القرآنُ الكريم طابعَه الخاص على أسلوب «النورسي» ووضع عليه بصماته، وهداه لأساليبه وطرائقه في مخاطبة النماذج البشرية نفسها التي خاطبها القرآن، وتوجّه اليها بالنداء.

فتأرجُح الانسان بين الايمان والكفر، وتذبذبه بين الشك واليقين، وانتقال المؤمن بين درجات الايمان صعوداً وهبوطاً، وزيادةً و نقصاناً، وكذلك شكوك الكافر – في حال صحْوه – بكفره حتى ليكاد يتخطىٰ عتبة الكفر الىٰ الايمان مرةً، وترديّه بكفره الى الدركات التي لا يرجىٰ معها إرتقاء وصعود مرةً أخرى. هذا التأرجح بين النقائض، والتذبذب الحادّ بين الأضداد، هو المأساة المحزنة التي عانت منها البشرية عبر أجيالها منذ الحقب الاولى من تاريخها حتى هذا اليوم، وهي المعضلة التي استأثرتْ باهتمام الكتب المنزلة، ولاسيما القرآن الكريم، وهي تستأثر اليوم باهتمام تلامذة القرآن وخدَمه المخلصين الذين ينهجون نهجه، ويقتفون أثره، ومنهم «النورسي» رحمه الله.

فالقرآن الكريم «كتاب إيمان» بالأساس، دعا اليه، وعالج قضاياه، ورسم طريقه، وهدىٰ اليه، وناقش المنحرفين عنه والضالين عن طريقه، إلاّ انه مع ذلك تناول بالاستهجان كفر الكافرين، وتعرّض لباطل تصوراتهم، وبيّن خطأ معتقداتهم، وكرّس الكثير من آياته وسُوَره للرد عليهم، وتفنيد آرائهم، والتنديد بباطلهم، وبالتالي دعوتهم للخروج من الظلمات الى النور، والهرب من ضيق الكفر الى سعة الايمان، والانفلات من عبادة الهوى الىٰ عبادة الله. فكما توجّه القرآن بخطابه للمؤمنين توجّه أيضاً بندائه للكافرين، طالباً من الأولين الثبات علىٰ الايمان ومحذراً إياهم من الانزلاق الى مهاوي الشيطان، وداعياً الآخرين للتحرر من ربقة الكفر والدخول في حظيرة الايمان.

واننا لنلمس آثار المنهج القرآني جلياً واضحاً في رسائل «النورسي» فهو – بالأساس – رجل ايمان، انصبتْ اهتماماتُه علىٰ القضايا الايمانية الكبرى

التي كثيراً ما ينفُذ منها اعداء، الايمان، ليشككوا في صحتها او صدق وقوعها كالآخرة والحشر والنشر والجنة والنار، وغيرها من الغيبيات التي هي من اسس الايمان وأصوله، واستطاع أن يثبت بالدليل العقلي القاطع صحة هذه المسائل ومصداقيتها و حتمية وقوعها كما تقول الأديان، وقد نجح في البرهنة علىٰ أن سبيل الانسان للايمان بهده الغيبيات هو العقل أيضاً إذا أحسنَ استخدام منطقه، وأن الغيبيات ليست – كما كان يقال او يُظَنُّ – من الامور التي تقع ما وراء ساحة العقل، وان الايمان بها لا يمكن ان يكون إيماناً عقلياً – أي يستند الى العقل – وإنما هو إيمان قلبي نؤمن بها كما جاءت دون أن نقحم العقل في التدليل على صحة وجودها ووقوعها!

فمع هذا الجهد الكبير الذي قدّمه الرجل في ترسيخ أسس الايمان علىٰ اساس عقلي، وتمتين أصوله، وتعزيز قواعده، لم ينس الإلحاد، ولم يغفل الكفر، بل توجّه مباشرةً الى اصول «الكفر والإلحاد» و قواعده وجذوره، و ناقشها بهدوء في العديد من رسائله مبيناً وهنَها وضَعفها ووهم التصورات التي تُفضي اليها، وخطأ المنطق الذي يبنىٰ عليه، وخلُص في خاتمة المطاف الى نتيجة مفادها: ان «الكفر والإلحاد» نغم ناشز في موسيقىٰ الكون، وشقٌّ مخيف في الصرح العقلي للوجود، وانحراف رهيب في زاوية بناء العالم، وشرخٌ دائم الصديد في جمجمة البشرية، وجرح نازف في القلب الانساني اللهيف.

ولعلّ بحوثه في «الاسماء الإلهية الحسنى» هي أعظم ما يمكن أن يقدّمه مفكرٌ للانسان الحائر المتسائل عن لغز الخليقة، وسر الوجود، و مغزىٰ مجيء الانسان الىٰ هذا العالم.

القوة العظمى للاسماء الالهية الحسنىٰ:

فالاسماء الالهية الحسنىٰ، لا ينبغي لأحد – يريد استكمال ايمانه بها – استحضارها في الذهن مجردةً عن فعلها وأثرها في الحياة والوجود، أو يرددها لسانُه من غير تأملٍ في تجلياتها في سماء نفسه، وفي الكائنات والموجودات من حوله، كما يريد أن يعلّمنا «النورسي».

فلا ترتقي حياةُ المؤمن الايمانية، ولا تستكمل هذه الحياة العمق والسَعَة، ولا تنزه أو تشرُف إلاّ إذا لازم المؤمن «الاسماء الالهية» وانجذب اليها، والتحم بها، وغاص في أنوارها، وعاش حياته اليومية بمعانيها وموحياتها، وعرف يقيناً أن الاسماء الالهية لها النفاذ الواسع والعميق في الحياة والوجود، وهي التي تمنح الموجودات سماتها المميزة، وتعيّن معانيها المحددة، وترسم أغراض وجودها وهدف حياتها، وتخط دائرة نشاطاتها، وتؤشر معالم علاقاتها بعضها بالبعض الآخر، وتقدّر درجة تأثيرها في الأشياء، وتأثرها بها.

فاسم الجلالة «الله» سبحانه وتعالى، وأسماؤه الحسنى الاخرى – سواء المصادر منها أو الصفات – إنما هي منبع الحياة، وأصل الوجود،و مفاتيحٍ الأكوان والعوالم، ومصادر المعارف والعلوم والفنون، وأساس كل معنى طاهر شريف، وجذر كل صفة جميلة منزّهة عن النقائص والعيوب.

فما من علمٍ أو معرفةٍ أو معنىً سامٍ أو صفة جميلة على هذه الأرض إلاّ وتستمد حياتها، وتنال قوت بقائها من واحد من هذه الاسماء المقدسة الطاهرة، أو من جملة منها.

علم الاسماء:

ومن هذا السر اللطيف كان أعظم ما كُرِّم به «آدم» عيله السلام، أبو البشر - يومَ أَراد له الله الهبوط الىٰ الأرض ومواجهة العالم والتعايش معه - هو تعلّمه «علم الاسماء» بتعليم الله له، حيث قال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿ **وَعلَّمَ آدمَ الاسماء كلها..** ﴾.

فعلمُ الاسماء هو كنز «آدم» عليه السلام الذي خَلَفَه لأبنائه من بعده، يتوارثونه ويتناولون منه على قدر ما تحتمله عقولُهم، وتقدر عَليه نفوسُهم عبر الدهور والازمان وهو كنز عظيم لا تنفد مصادرُه، ولا ينضب معَينه حتى لو عكفت علىٰ الاخذ منه البشريةُ قاطبةً من أول آدمي على وجه الارض حتى قيام الساعة، لأنه يستمد من بحر الحياة الواسع العميق المتجدد الذي يشع بأنواره وفاعلياته الدائمة، وطاقاته الأبدية، وهذا البحر هو بحر «الأسماء الالهية الحسنىٰ» التي كُلُّ ما في الوجود إنما هو أثر من أثار تجلياتها ومؤثراتها.

فالافعال الوجودية التي ينهض بها الوجود، وتتّقد بزيتها جذوةُ الحياة، وتستمد منها الخليقةُ دوام الحركة واستمرارية البقاء، إنما هي إنعكاسات أنوار هذه الاسماء، وانسكابات طاقاتها الحياتية في الأشياء.

فعلمُ «اسماء الله الحسنىٰ» هو علمٌ خصبٌ غزيرٌ، مَوّارُ المعاني والأفكار، وبحر واسع عميق متلاطم في طاقاته وإشعاعاته وأنواره.

وهذا العلم السامي - رغم كل ما كُتبَ فيه حتى الآن - ما زال علماً بكراً بعيدَ المنال، يقف المؤمنون على شطئآنه ويكتفون بالنظر اليه من بعيد دون ان يكلفوا أنفسهم عناء السير اليه، والوصول الىٰ منابعه العالية فوق قمم المعارف جميعها.

فالحياة الايمانية اليومية التي يحياها عامة المؤمنين تقع – مع الأسف الشديد – على هامش هذا العلم وعلى بُعدٍ من مركز دائرته، وفي أسفل من قمة وجوده، وحتّى الجادُون من المؤمنين لا يتجاوز علمُهم بأسماء الله الحسنى ما تردّده شفاههم من هذه الاسماء في أورادهم دون الغوص الىٰ معانيها، أو استقراء تجلياتها في جوانب الكون وأرجاء الوجود والحياة، ولهذا ليس مما يثير الاستغراب أن تصبح هذه الحياة باردة خامدة مفتقرة الىٰ الحرارة والحماسة والتجدد والتألق الذي تمنحه الاسماء الالهية للمؤمنين إذا ما عاشوا في معانيها، وامتثلوا لموحياتها، وتخلّقوا بأخلاقها وصفاتها.

فأسماء الله الحسنىٰ، وتجلياتها في الموجودات، وانعكاساتها في مرايا الكائنات، وقيام هذه الكائنات بها، واستمداد ما يحفظ وجودها منها، واكتساب نورانياتها من أنوارها، والتماس الحياة من منابع حياتها، وانتساب المعارف والعلوم والفنون اليها، وتعلقها بأسرارها.. هو ما يريدنا «النورسي» ان نكون علىٰ علمٍ به ضمن مباحثه المهمة عن «اسماء الله الحسنى» وعن إشعاعاتها وتأثيراتها في الوجود والحياة. وهو لا ينفك يغرينا بالتعايش مع هذه الاسماء في شؤون الحياة التي نحياها والواقع الذي نعيشه.

وقد كتب «النورسي» ثلاثين ومئة رسالة أسماها «رسائل النور» تقصّى فيها آثار الأسماء الالهية الحسنى في الانسان والوجود والأكوان، و تلمّس منابعها في المعارف والعلوم والفنون، واستقرأ تجليات أنوارها علىٰ الاشياء والموجودات، وتتبّع أسرارها في الخلق والأيجاد، والموت والحياة، ووقع على أعاجيبها في الحشر والنشر والجنة والنار والرحمة والعذاب، وأثبت بما لايقبل أدنىٰ شك بأنَّ من وراء هذا كله إرادةً وهدفاً وغايةً، وعلماً

وحكمةً، وعدلاً وجمالاً وجلالاً، وأحدية لا تقبل نداً ولا شريكاً، وقدرةً مطلقةً لا يعجزها شئ، وقدَراً مرسوماً، وقضاءً مبروماً، وآجالاً محتومة، وخلوداً أبدياً – بعد الموت – في الجنة أو النار.

وهذه هي الأغراض والموضوعات نفسها التى دارت عليها وحولها آيات القرآن الكريم وسوره، ومن هنا فما جانب الصواب من وصف «رسائل النور» بأنها نوع جديد من التفسير للقرآن الكريم.

الاسم الاعظم الجامع:

ويفرد «النورسي» للاسم الاعظم المتضمن لأسمائه تعالىٰ (القدوس، العدل، الحكم، الفرد، الحي، القيوم) مبحثاً خاصاً – وهى اللمعة الثلاثون – يتتبع فيه تجليات هذا الاسم، ويستقصي فاعليته وآثاره وسماته على كل موجود تنسّم أنسام هذا الاسم، ولامسه نفسٌ من أنفاسه.

فتجلّى الاسم الأعظم – «الحي» مثلاً – على الموجودات والتاثير فيها، أنهضها من رقدة العدم. وأزاح عنها أستار الغيوب، وأكسب كلاّ منها نوعاً من أنواع الحياة التي لا حصر لأنواعها وأشكالها و درجاتها، وألبس كُلّ موجود – بحسب مكانته المقدرة من الموجودات – ثوب الحياة المقدّر له، والمناسب لماهيته ومهمته في هذا الوجود، بحيث يستطيع – بهذه الحياة – ادراك الخالق – نوعاً من الأدراك – ويتوجه اليه بالحمد والتسبيح والشكر بدليل قوله تعالىٰ: ﴿**وإن من شئٍ إلاّ يُسبّحُ بحَمْدِه**﴾.

فلا عجب – وأمر الحياة ودرجاتها كذلك – إذا ما سبّح الحجرُ والمدر، والزهر والعشب والثمر، والنجم والشمس والقمر... وكل موجود آخر من الذرة المتناهية في الصغر الى الكون المتناهي في الكبر.

وإذا ما سلّم الانسان بهذه الحقيقة وعرف انّ الحياة في الموجودات أنواعٌ ودرجات وأنّ حياته ليست هي كل الحياة، وإنما هي نوع واحد من أنواعها وإن كانت أرقاها وأعمقها واشملها، استطاع عندئذٍ أن يدرك بسهولة ويسر بعض الأحداث والوقائع والمعجزات الغريبة التي وقعت للأنبياء والرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – بتجاوب بعض الكائنات والموجودات معهم وانعطافها اليهم وإطاعتها لأشارتهم، والشهادة لهم بالنبوة والرسالة. ولا سيما ما تواتر خبر وقوعه لسيدنا الرسول ﷺ.

والحياة في الكائن الحي ليست هي مجرد حياة – كما يقول «النورسي» – وإنما هي حياة يخامرها الجمال، ويمازجها اللطف، وتندرج فيها الرحمة، وتتخللها العناية، ويتظاهر فيها الإتقان ودقة الصنعة، وتنطوي على العلم والحكمة، وتشير الىٰ الإرادة، وتومئ الى القصد والمغزىٰ.. أي أن حياة «الكائن الحي» تتجلىٰ فيها جميع الاسماء الإلهية الحسنى وصفاتها الجمالية والجلالية.

وبعدُ: فمنْ أراد ان يعرف «النورسي» علىٰ حقيقته، و يكتشف أىّ مفكر هو! وما الأعماق الإيمانية التي وصل اليها وغاص فيها وعَبّ منها، وأية آفاقٍ من نور العقل والروح تسامى اليها، وكيف يفكر، وما خلفية أفكاره، وأيّ حسٍ ايماني مرهف يمتلك، وما سرُّ قوة فكره، وعملية قلمه!.. ومَنْ أرادَ أن يرىٰ «النورسي» بشجاعة روحه وبسالة قلبه، ورباطة جأشه، وهو يعالج مغاليق الإيمان، ويفتتح أقفال الوجود، ويضع يد الانسان علىٰ أسرار الخلق والايجاد! فليقرأ رسالته القيمة – اللمعة الثلاثين – ومبحثه الجريء المبتكر هذا..

وها أنذا اترك القارئ الكريم يدلف الىٰ عالم «النورسي» مباشرةً ويجرب العيش بعض الوقت في هذا العالم العجيب المشحون ببوارق روحه والتماعات ذهنه.

والله نسأل أن يرزقنا حُسن الفهم لما نقرأ، وحسن العمل بما نفهم وأن يتقبل منا هذا الجهد المتواضع خالصاً لوجهه. آمين. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسولنا الأمين..

* * *

بين يدي
المعجزات الأحمدية

لا غروَ أن يكون محمد ﷺ مَحَطّ أنظار الوجود، وموضع تكريم الموجودات، وموئلَ أُنسِ الكائنات، ومَدارَ جدل المخلوقات.

فهو ﷺ رحمةُ الله المهداة إلى عبيده المعانين من عذاب التيه والضلال، وأنداء كرَمه فوق جدب النفوس وقحط الارواح، ولمسته الحانية علىٰ ظهر العالم المثقل بالهموم والاحزان.. وهو أيضاً العقل الرشيد للشعوب والامم، والعلمُ المنير لجهالات الأرض، والميزان الدقيق الذي به تصحّح موازين النفوس واختلاجات الضمائر والقلوب.

وكان لا بُدّ – وهو المرسَل من رب العالمين إلى العالمين طُرّاً – أن تُدركه عناية الله فتيسّر له سُبل التعارف والصداقة والودّ مع مخلوقات الله وموجوداته على اختلاف درجاتهم من سُلّم الحياة والوجود، ليتسنّى له تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة على الوجه الأكمل والأتّم.

فارتقب «الكُلُّ» مبعثَه، واستبشروا بقدومه، وأصاخوا له السمع، ومثّل البعض منهم بين يديه معلنين ولاءهم ومحبتهم، وشاهدين له بالنبوة والرسالة، فحفظتْ لنا سيرته العطرة مواقف ومشاهد وصوراً أخّاذة من تفجرات القلوب بالود والمحبة والتعاطف حتىٰ في الجمادات الصمّاء فضلاً عن ذوى الارواح من مخلوقات الله، وروت ما دار بينه وبينها من احاديث غاية في الجمال بلسان «الحال أو المقال» كما اعتمدته كتب الحديث

الصحاح مدرجةً ضمن معجزاته الكثيرة التي فاقت معجزات الانبياء عليهم السلام من قبله.

ولئن كان القرآن الكريم المذهل بنجوم بلاغته، وشموس أفكاره، وسماوات معانيه – هو اعظم معجزاته ﷺ، واخلدها على الزمن، واشملها واوسعها مدىً، واعلاها صوتاً، وأقواها تحدياً لعالَمي الانس والجن.. فانّ معجزاته الكونية الاخرى كان لها ايضاً شأنها الاعجازى المدوّى الذي هزّ اركان الكفر والجحود في عقول المنكرين المعاندين وقلوبهم، واثرها البيّن في زيادة اليقين وتثبيت اركان الدين لدى المؤمنين المصدقين.

وهذا النوع الأخير من المعجزات إنما هو انعطاف مفعم بالودّ والانس بين ذات الكون وذات محمد ﷺ، وهي تعنى – في جملة ما تعنيه – الشهادة من جزئيات الكون وكلياته على صدق نبوّته وصدق دعوته ورسالته، وكأنّ الله سبحانه وتعالىٰ – ملك الأزل والابد ومالك زمام الاشياء جميعاً – يومئ الى الكون أن:

كُنّ مع محمد.. وصدّق دعوتَه.. وأطِع إشارته.. وصرْ في خدمته.. لانه الحبيب المحبوب الذي اكرمته باعظم رسالة.. وشرّفته باكرم نبوة.

وفي هذا المعنى يقول «النورسى» في الاشارة البليغة الثالثة من رسالة «المعجزات الأحمدية»:

«إنّ معجزات الرسول ﷺ كثيرة جداً، و متنوعة جداً، وذلك لانّ رسالته عامّة وشاملة لجميع الكائنات، لذا فله في أغلب أنواع الكائنات معجزات تشهد له، ولنوضح ذلك بمثال:

«لو قدم سفير كريم من لدن سلطان عظيم لزيارة مدينة عامرة بأقوام شتّىٰ، حاملاً لهم هدايا ثمينة متنوعة، فإن كل طائفة منهم ستوفد– في هذا الحال – ممثلاً عنها، لاستقباله باسمها و الترحيب به بلسانها.

فكذلك لمّا شرّف العالم السفير الأعظم ﷺ لملك الازل والابد، ونوّره بقدومه، مبعوثاً من ربّ العالمين الى اهل الارض جميعاً، حاملاً معه هدايا معنوية، وحقائق نيرة تتعلق بحقائق الكائنات كلها، جاءه من كُلّ طائفة من يرحب بمقدمه، ويهنؤه بلسانه الخاص، ويُقدّم بين يديه معجزة طائفته تصديقاً بنبوته، و ترحيباً بها، إبتداءً من الحجر والماء والشجر والانسان، وانتهاءً بالقمر والشمس والنجوم، فكأنّ كلاّ منها يردد بلسان الحال: أهلاً ومرحباً بمبعثك!»

* * *

ورغم هذا الاكرام العظيم الذي حظي به رسولنا الكريم ﷺ من لدن الله سبحانه وتعالى، بتسخيره الكون له، وخرقه لنواميسه لاجله، وربما تعطيل هذه النواميس لوقت معلوم، ولهدف مطلوب.. ورغم أن الكون غدا – بامر الله – رهن أشارته، وطوع إرادته، فانشقّ القمر بأيماءة من أصبعه.. رغم هذا كله فانه ﷺ كان وقّافاً عند هذه النواميس فلم يتجاوزها إلاّ في احوال معدودة، وحين الجأته الضرورة القصوىٰ لذلك. فبلغ من احترامه لهذه السنن، واكباره لها، أنه انكر علىٰ من قال: إنّ الشمس كسفت لموت ابنه إبراهيم عليه السلام، فخطب الناس ليقرر هذه الحقيقة، وليعلّم اصحابه الوقوف باحترام أمام هذه السنن قائلاً فيما رواه البخارى ومسلم: «ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله تعالى لا ينخسفان لموت أحد، ولا لحياته، فاذا رأيتم ذلك فادعوا الله، وكبّروا، وصلّوا، و تصدّقوا».

ولأنه القدوة والمثال للمسلمين في عصره وفي كل عصر، فأنّ هذه النواميس والسنن جرت عليه كما تجرى على أى بشرى آخر.. فخسر المعارك وربحها، وجرح وكُسر رباعيته، وجاع وعطش، وصام وأفطر، وصلّى ونام، وتزوج النساء، ومشىٰ في الاسواق. الى آخر شؤونه البشرية الأخرى، كما هو مدوّن في كتب السيرة.

و« النورسي » يقرر هذا الأمر، ويعتبره الركن الأساس الذي ينبغى أخذه بنظر الاعتبار عند أي بحث في معجزاته ﷺ فيقول في « الاساس الاول » من الرسالة نفسها:

« إنّ جميع أحوال الرسول ﷺ، وأطواره يمكن أن تكون دليلاً على صدقه، وشاهداً على نبوته، إلاّ أنّ هذا لا يعني أن تكون جميع احواله وأفعاله خارقةً للعادة، ذلك لأن الله سبحانه و تعالى قد أرسله بشراً رسولاً، ليكون بأعماله و حركاته كلها إماماً و مرشداً للبشر كافةً، وفي أحوالهم كافّة، ليحقق لهم بها سعادة الدنيا والآخرة، وليبيّن لهم خوارق الصنعة الربّانية، وتصرف القدرة الألهية في الامور المعتادة، تلك الامور التي هي بحدّ ذاتها معجزات.

فلو كان ﷺ في جميع أفعاله خارقاً للعادة، خارجاً عن طور البشر، لما تسنّىٰ له أن يكون أسوة يقتدى به، وما وسعه أن يكون بأفعاله وأحواله وأطواره إماماً للآخرين، لذا ما كان يلجأ إلى إظهار المعجزات إلاّ بين حين وآخر، عند الحاجة، إقراراً لنبوته أمام الكفار المعاندين.. »

والسؤال الذي يراود الذهن هنا:

لماذا لم تستطع معجزات الرسول – رغم كثرتها – أن تُرغم الكفار على التصديق والأيمان، والتبرؤ من الكفر والجحود والعصيان؟

يجيب «النورسي» علىٰ هذا السؤال مقرراً إحدىٰ الحقائق الكبرى في حكمة التكليف في الحياة الدنيا، فيقول في خاتمة «الأساس الأول»:

«ولما كان الأبتلاء والاختبار من مقتضيات التكليف الألهي، فلم تعد «المعجزة» مُرْغمةً علىٰ التصديق – سواء أراد الانسان أم لم يرد – لأن سرّ الامتحان وحكمة التكليف يقتضيان معاً:

فتح مجال الاختيار امام العقل من دون سلب الارادة منه، فلو ظهرت المعجزة ظهوراً بديهياً مُلزماً للعقل – كما هو شأن البديهيات – لما بقي للعقل ثمة اختيار، ولصدَّق أبو جهل كما صدّق أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، ولانتفت الفائدة من التكليف، والغاية من الامتحان، ولساوى – في القيمة – الفحم الخسيس مع الألماس النفيس».

ومع هذا الذي ذكرناه عن بشرية شؤون الرسول ﷺ، وكونه نموذج الانسان الحق بكل أبعاده، وكما ينبغي أن تكون عليه إنسانية الانسان الاصيلة.. يلزم ألاّ نوغل بعيداً في بشريته الىٰ حدّ الذهول الذي ينسينا نبوّته ورسالته، وألاّ نشتطّ في ابراز جوانب هذه البشرية العظيمهة على حساب عظمة الرسالة والنبوة، كما فعل بعضُ مَنْ تصدىٰ للكتابة في سيرته ولا سيما في هذا العصر.

فماهية الرسول ﷺ ماهية سامية فريدة. فلا تقبل هذه الماهية الشريفة السامية التجزئة والانقسام، وأى عمل في تاريخه او سيرته يغفل هذه الحقيقة يأتى مبتوراً وناقصاً عاجزاً عن ابراز ملامح هذه الشخصية الفذّة كما هي عليه في الحقيقة والواقع.

و«النورسى» هنا يشير الى هذه الحقيقة في «الاساس السادس» فيقول:

«إنّ أحوال الرسول ﷺ وأوصافه قد بُينت على شكل سيرة وتاريخ. إلاّ أنّ اغلب تلك الأحوال والأوصاف تعكس بشريته فحسب، إذ إن الشخصية المعنوية لتلك الذات النبوية المباركة سامقة، وماهيته المقدّسة نورانية إلى حدّ لا يرقى ماذُكِرَ في التاريخ والسيرة من اوصاف واحوال الى ذلك المقام السامى والدرجة الرفيعة العالية، لأنه ﷺ على ضوء قاعدة «السبب كالفاعل» – أي في الأجر – تضاف يومياً حتى الآن – الى صحيفة كمالاته عبادةٌ عظيمة بقدر عبادات أمته بأكملها، وكما تحفّه نفحات الرحمة الألهية غير المتناهية بشكل غير متناه، وبقدرة غير متناهية، كذلك يناله يومياً دعاء لا محدود من ملايين لا تُحدّ من امته.

فهذا النبى الكريم المبارك ﷺ الذي هو أنبل نتائج الكائنات، وأكمل ثمراتها، والمبلّغ عن خالق الكون، وحبيب رب العالمين، لا تبلغ احوالُه واطوارُه البشريةُ التي ذكرَتْها كتبُ السيرة والتاريخ الأحاطة بماهيته الكاملة، ولا تصلُ الى حقيقة كمالاته.

فانّى لهذه الشخصية المباركة الذي كان كُلّ من «جبرائيل» و «ميكائيل» مرافقين أمينين له في «غزوة بدر» أن تنحصر في حالة ظاهرية أو ان تظهرها بجلاء حادثة بشرية كالتي وقعت له ﷺ مع «صاحب الفرس» الذي ابتاعه منه ولكنه أنكر عليه هذا البيع وطلب منه شاهداً يصدّقه فتقدم الصحابى الجليل «خزيمة» بالشهادة له.

فلئلاً يقع أحد في غائله الخطأ، يلزم مَنْ يسمع الأوصاف الاعتيادية البشرية له ﷺ أن يرفع بصره دوماً عالياً لينظر الىٰ ماهيته الحقيقية، والى شخصيته المعنوية النورانية الشامخة في قمة مرتبة الرسالة، وإلاّ أساء الأدب ووقع في الشبهة والوهم».

* * *

فالاعجاب بأية جزئية من جزئيات حياته، وبأى جانب من جوانبها، يقود بالضروة إلى الأعجاب بكلية هذه الحياة، وبجميع جوانبها علىٰ الاطلاق، وإنّ الايمان بصدقه في مفردة من مفردات حياته اليومية يجرّ إلى تصديقه في كل ما يصدر عنه من قول وعملٍ. وقريش التي لا تكذبه فيما لو أخبرها أن وراء هذا الجبل جيشاً يريد أن ينقضّ عليها لانها لم تجرب عليه كذباً. بنبغي لها ألاّ تكذبه كذلك بما يخبرها به من اخبار السماء كما ورد في الأثر.

فصدقُه اعجازي منقطع النظير بكل مقاييس علوم الاخلاق والنفس والحكمة، وهو اعجازى ايضاً لأنه لم تنقطع شواهدُه وآثارُه بوفاته ﷺ. بل ظلّ تحقّقُه مستمراً وسارياً في الاحقاب والعصور، وسيظلُّ مستمراً وسارياً حتى قيام الساعة، فما أخبر عنه من امور المستقبل التي ستقع لأفرادٍ من صحابته وآل بيته ولأمته من بعده تتحققّ عياناً عصراً بعد عصر، ويوماً بعد يوم.

فمعجزاتُه ﷺ – إذن – ليست مقصورة علىٰ عصره، فهى تحمل – بسرّ صدقها – قوة إختراقٍ عجيبة تخترق بها الأزمان، وتواكب بها العصور. وهي بالحق الصراح الذي تنطوي عليه لها قدرة الحضور في كل وقت وحين. وبعنصر الخلود الذي يطبع رسالته – عليه السلام – تكتسب معجزاتُه صفة الدوام والاستمرارية والامتداد والتعاقب في الاجيال الآتية تعاقب الليل والنهار، فيشهدها المؤمنون بعيون خيالهم، ويحسّونها بحسّهم الأيمانى المرهف، ويبصرونها بأشواق بصائرهم، ويستعيدون وقائعها كما يرويها رجال الحديث الثقات الصادقون وكأنها تقع الآن، وتتشكل – امام أعينهم – في اللحظة والتو، فتؤدي وظيفتها اليوم – وكلّ

يوم – كما أدّتها في زمانه ﷺ في زيادة ايمان المؤمنين وفي زعزعة اوهام المنكرين.

وإنه لممّا يزيد هذا الامر توكيداً ما يطالعنا به علماء مرموقون في شتى العلوم من تصريحات – بين يوم وآخر – يعترفون بها بسبق الأسلام في إشارته الى كثير من حقائق العلم التي انتظرت البشرية اربعة عشر قرناً قبل أن تصل اليها، وإنّ هذه الاعترافات لممّا يورث قناعةً اعظم باستمرارية المعجزات وعدم توقفها إلاّ بتوقف الحياة نفسها.

و« النورسى » شرع في تصنيف رسالة « المعجزات الأحمدية » من منعزله علىٰ سفوح الجبال وفي أحضان الحقول والبساتين، ولم يكن في متناول يده أي مرجع في الحديث، فاعتمد في الاستشهاد بالحديث على ذاكرته وحفظه المذهل، ومع ذلك فهو يتحرّى – جهده – المتواتر والصحيح من كتب الصحاح الستة المعتمدة كما هي في حافظته، ونظرة متأملة إلى مئات الاحاديث التي اوردها هنا تزيدنا ثقةً برسوخ قدمه في « علم الحديث » وإلمامه الجيد بالسيرة ووقائعها، ورغم أنه كان ينتسخ من الذاكرة، ويقلب صفحات الحافظة، فأغلب الظن أنّ صيارفة « الحديث » ونَقَدَتَه لا يقعون على مغمز يمكن أن يغمزوا به قناة الرجل، وإن وجدوا فسبحان الذي لا يسهو ولا يخطأ.

ولا تفوتنى الأشارة الىٰ أنّ الرجل لم يقصر بحثه في الرسالة علىٰ المعجزات فقط، بل كان يعلق احياناً ويفسر حيث تقتضى المناسبة ذلك، ويأتي تخريجات لأحداث تاريخية مثيرة ومحيرة قد غابت عناً حكمة حدوثها، فأذا بهذه التخريجات تروى غلّة التساؤل، وتطفئ حرقة الألم الذي نحسه في قلوبنا، فأذا قرأنا تخريجاته أحسسنا بالراحة والاطمئنان.

وهو إذ يتناول « في الاشارة البليغة الخامسة » الفتنة الدموية الرهيبة التي أصابت الأمة الاسلامية في عصر الراشدين وخير القرون، يبين أن يد القَدر تمسك بالأمم و تهزها هزاً عنيفاً، وتخضها خضاً لتتساقط ثمار عبقريتها، وتنتشر ازاهير حضارتها، وتتفرق بذور صلاحها الى أرجاء المعمورة محمولة علىٰ رياحِ الفتن واعاصيرها الهوج، وبذلك تظلُّ اعصاب الروح في الأمة مستوفزة، ومشدودة و متيقظة لما يحيق بإيمانها من كوارث واخطار.

* * *

استاذية الرسائل

يبقى «النورسي» من بين الكتّاب الاسلاميين اكثرهم اهتماماً بأساسيات الايمان وقضاياه الغيبية لما بعد الموت، فقد هيمنت هذه القضايا على تفكيره واستأثرت بوجدانه منذ كان طفلاً يرقب عن كثب ظاهرة الموت، وعجز بني البشر عن دفعه عنهم، فبدأ اهتمامه في سن مبكرة جداً بمعنى الموت والحياة، وسر الفناء والبقاء، وظلّ هذا الهاجس يلازمه طوال حياته مما جعله يتميز بابداعاته في هذا المضمار الذي يكاد ينفرد به دون سواه.

وكانت مسألة الوجود ـ وجوده الذي يحرص على بقائه وخلوده ـ والعدم ـ الذي يخافه ويشفق منه ـ هي نقطة الانطلاق في البحث عن كل ما يسند هذا الوجود ويحفظه ويمنحه القوة على مغالبة العدم والانتصار عليه. فلم يعثر في غير الدين ـ من مذاهب وافكار وفلسفات ـ على ما يمنح وجوده ذلك الخلود الذي يشتاقه ويتوق اليه، هو وكل انسان على هذه الأرض.

وكان من الطبيعي ـ وقد وجد ضالته في الايمان والاسلام ـ ان يحسّ بروح الخلود سارياً في كيانه كله، ومشيعاً في وجوده خارقة الفهم لحقيقة الزمن الأخروي الذي يرتبط أحد طرفيه بالانسان، وطرفه الآخر بالأبد، فلا عجب اذا ما غدت العلاقة بين الانسان والأبد ـ منذ هذا الاحساس ـ ميدان قلم «النورسي» في رسائله البالغة ثلاثين ومئة رسالة.

فانقاذ الانسان من العدم هو المحور الذي تدور عليه الرسائل، فقد استطاع «النورسي» البرهنة من خلالها على ان الوجود الحي يستمد حياته من اسم الله «الحي»، بينما «العدم» أمر اعتباري لا وجود له، وان الانسان بلطائف تكوينه مخلوق للخلود، وأما «الموت» الذي يصيبه فهو لباس موقت لا يلبث أن يتجرد منه ويلبس بدلاً عنه ثوب البقاء والخلود، وان «الغيب» عالم الحق والطهر والقداسة عالمٍ مهيب وجليل وهو قائم فعلاً، وانه يلهم - بحكم ارتباطه بالكون - بعض من يريد من البشر بعض ما يريد من حقائق الاشياء، وان تلقي المعارف الإلهية المتنزلة على الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أمر ممكن بل لازم من لوازم الألوهية والربوبية التي ليس من شأنها ترك مربوبيها هملاً دون توجيه، أو دون التعريف بنفسها أو التعريف بآياتها المنتشرة في كل مكان من هذا العالم.

وظلَّ «النورسي» يتوغل بقلمه في هذه القضايا الإيمانية، ويكتب فيها بأستاذية نادرة، حتى غدت «رسائل النور» بمجموعها قوة عظيمة من قوى الاقناع بمصداقية الغيوب التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ولكونها أحاطت بجميع مراتب الغيبيات ابتداءً بالملائكة وانتهاءً بالقيامة والنشر والحشر واليوم الآخر، لذا فقد تكاملت شخصيتها المعنوية، وتوضحت ملامحها، وتعمقت سماتها المميزة، حتى ان «النورسي» كاتبها نفسه يتعامل معها وكأنها ذات منفصلة عن ذاته، وشخصية مستقلة عن شخصيته، وكيان مباين لكيانه، وفكر يرفد فكره، وعقل يغني عقله، وهذا أمر غريب لم يسبق لمفكر من المفكرين أنْ تعامل مع نتاج فكره كما تعامل «النورسي» مع فكره. فهو استاذ عظيم حين يكتب أفكاره، أو يمليها على الآخرين، ولكن ما إنْ ينتهي منها حتى يعود تلميذاً لها. يتتلمذ عليها، ويجلس منها مجلس التلميذ من استاذه، فيتدارسها، ويستشهد بها، ويميل

عليها، ويطلب من طلابه ان يتعلقوا بها، ويفيدوا منها، ويأبى عليهم التعلق بشخصه، أو الالتفات اليه، ويعلمهم دائماً ان «رسائل النور» هي استاذهم الحقيقي، وانه على استعداد ـ كما يقول ـ ليموت في سبيلها، ويتلقى من أجلها صنوف الأذى والعذاب، ولكنه لا يرضى أن يمسها أحدٌ بسوء، أو يحجبها عن طالب، أو يمنعها قارئاً، لأنها ملاذ الايمان والمؤمنين، وحصنهم الحصين، وسلاحهم الذي يفلّ سلاح أعداء الايمان والدين.

وطبيعي جداً ان يرى «النورسي» «رسائل النور» استاذاً عظيماً لا مناص من الأخذ عنه والتتلمذ عليه، لأنه لم يورد في هذه الرسائل تصورات فكرية، أو مُرجّحات عقلية، قد يصدق بعضها ويخطئ بعضها الآخر، وإنما كتبَ فيها ما رأى وشاهد وجرّب، وبلغ عنده حدّ اليقين الذي لا يمكن ان يقبل الخطأ، فما تتضمنه الرسائل يقينيات لم تبلغ حدّ اليقين عنده قبل اختبار قدرتها على بناء نفسه، واقامة كيانها المنقض، وقبل اختبار فاعليتها على مسح جراحات روحه، ورتق انشقاقات وجدانه، وهي بعد ذلك يقينيات مستمدة من اليقين الأعظم وهو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فما من أحد كائناً مَنْ كان ـ ولو كان «النورسي» نفسه كاتب هذه الرسائل ـ الاّ ويشعر ـ بين الفينة والفينة ـ بالحاجة الى الرجوع اليها والنظر فيها ومدارستها والاستشهاد بها على ما يعنّ له من مسائل الدين والايمان.

إن قدرة «النورسي» على الفصل بين ذاته وموضوعه في «رسائل النور» قلّما يقوى عليه مفكر وجداني من المفكرين الوجدانيين.

لان الفكر الوجداني متعلق بالذات وبأحاسيس هذه الذات ومشاعرها، بحيث يصعب انفصاله عنها أو تحرره منها، ولكنّ «النورسي» لكونه مفكراً يمزج بين شفافية الوجدان وصرامة العقل والمنطق فيما يكتب، فقد

استطاع ان يسكب ذاته في فكره ثم يدفع بهذا الفكر ليستقل بنفسه خارج ذاته، وكأنه غريب عنه يحاوره ويستشيره حين يحتاج اليه، وهذا هو سر دعوة طلابه ليتتلمذوا على «رسائل النور» لا على شخصه، ويلتفوا حولها لا حوله.

صحيح ان بعضاً من المفكرين قد عاشوا أفكارهم، ولازموا معتقداتهم، واعتمدوها في أخلاقياتهم وسلوكهم، لكنَّ أحداً منهم لم يقف من فكره موقف التلميذ من أستاذه لأن أحداً منهم لم يبلغ فكره عنده درجة اليقين الذي لا يقين قبله أو بعده.

غير ان أفكار «النورسي» يقينيات مجربة أثبتت قدرتها على التفاعل مع النفس وعلى اختراق حصونها، وتنشيط خلاياها الإيمانية، واستئصال اية تورمات كفرية متفسقة فيها، وبذلك أصبحت جديرة بالأستاذية التي منحها إياها صاحبها «النورسي».

ومعارف «النورسي» الايمانية في رسائله معارف قرآنية بالاساس، لها انعكاساتها وتجلياتها في جسم الكون الذي لا يمكن تجريده من عنصر العقل المنطوي على هذه المعارف، والتي لا مانع من انتقالها ـ بالبحث والتنقيب ـ الى عقل الانسان ووجدانه كما تنتقل المعارف بين العقول، حيث يسند المعقول الكوني المنقول القرآني ويؤيده ويقويه، ثم يشكلان من توحدهما المعرفة الايمانية العتيدة الموثقة بالدليل العقلي الكوني، كما هي عند «النورسي» في كل رسائله...

فرسائله إنما ترسي لدى دارسيها قاعدة في ضرورة الفهم عن القرآن والكون معاً، ثم تترك لهم الخيار في كيفية هذا الفهم ودرجته وقوته بحسب ظروفهم الزمانية والمكانية.

* * *

أدب الإيمان

باستثناء بعض التجارب الأدبية، وبعض الدراسات النقدية فإنَّ ساحة العالم الاسلامي والعربي خاصة مازالت تفتقر – في هذا الزمان – الى الأعمال التي يمكن تبلورها في مدرسة أدبية رصينة، تتبنى الإيمان، وتنطلق منه، وترسي قواعدها على أصوله وحقائقه، ويكون لها روّاد مرموقون يمثلونها في نتاجاتهم الأدبية. ولا جدال في أن الفكر الاسلامي كان قد شهد خلال هذا القرن الأخير المزيد من التطور والتجديد. إلاّ أن «أدب الأيمان» عجز عن اللحاق به ومواكبته، فتأخر عنه بمسافة طويلة، الأمر الذي قلّما يحدث في مذاهب الفكر الأخرى، فهي ما تكاد تظهر الى الوجود حتى تنبثق عنها مدارسها الأدبية التي تدعمها وتدعو اليها، وتبشر بها.

ومهما قيل في اسباب ذلك، إلاّ أن السبب الرئيس هو غياب الروح اللّماح، وانطماره تحت ركامات قرون الانحطاط والتخلف، وعجز الحاسة الوجدانية عن ادراك جمالية هذا الفكر واستذواقه والتأثر به، ثم التعبير عنه بشفافية أدبية تهز الوجدان وتحرك المشاعر.

وقلةٌ اولئك الرواد الذين يتوحد فيهم العقل والوجدان، فيفكرون بقلوبهم، ويعقلون بأرواحهم، ومن هؤلاء القليلين استاذنا «النورسي» حيث تتوحد فيه منابع الفكر ومنابع الوجدان، فتلتقي في قرارة نفسه المنابع جميعاً مكونةً رافداً عظيماً يستقى منه الفكر مرة، والوجدان مرةً اخرى،

فوجدانياته تواكب أفكاره، وروحه يلازم عقله، فلا ينفكان او يفترقان، وهو يرسي بكتاباته قواعد مدرسة ادبية ايمانية يمكن اعتمادها من قبل أدباء الايمان فيما ينشؤون من نثر أوينظمون من شعر. وهو يفهم النفس الانسانية، ويدرك أفكار القلب البشري لأنه وقف على مشارفه طويلاً. ويرى أن حنين هذا القلب الى الخلود والبقاء قد يفجر ادباً من اروع ما عرفته البشرية من آداب الشوق والحنين والأسى الملتاع، وفي قطعته النثرية: «لا أحب الآفلين»(١) منحىً من هذه المناحي الذي يمكن النسج على منواله وطريقته.

وكما يتوحد الفكر والوجدان عند «النورسي» تتوحد في ذهنه ووجدانه المعارف الإلهية. فالمعارف الكونية عنده هي معارف إلهية في الحقيقة والواقع، تكشف لنا بالاستبطان والاستقراء أسرار الخلق وعظمة التكوين والايجاد.

كما أنه يرى الكون – بجزئياته وكلياته – وحدةً واحدةً، يحكمها قانون الهي واحد؛ هو قانون التعاون والتساند، لا قانون الصراع والجدال كما يذهب الى ذلك بعض فلاسفة هذا الزمان، لذا فالكون صديق حبيب للانسان، يبادله المحبة والودّ، فلا يحس بالغربة فيه، أو يجد ما يبرر الاستيحاش منه، فالربط بين قلب الانسان وقلب الكون هو مايسعى اليه «النورسي» في مدرسته الأدبية.

وصرامة النواميس الكونية وثباتها لا يعني أن خرقها وكسر قيودها أمرٌ مستحيل، فقد خرقها الأنبياء صلوات اللّه وسلامه عليهم ليثبتوا للناس أن ليس لهذه النواميس ثبات الألوهية وهيمنة الربوبية التي لا تقهر، وأنها

(١) الكلمات ٢٤٣.

ليست خالقةً بل مخلوقة، وليست مُوْجِدَةً بل مُوجَدَة، وأنها بيد خالقها يقلبها كيف يشاء ومتى يشاء وبأيدي مَنْ من يشاء من عباده، وذلك يصبح للمعجزة وظيفة جديدة أخرى الى جانب وظائفها المعروفة، وهذه الوظيفة إذا ما تناولها قلم أديب مبدع فأنه قادر أن يستولدها أدباً إيمانياً غاية في الجمال، كما فعل «النورسي» في قطعته النثرية «اليد الشريفة» التي يصف فيها معجزة يد النبي ﷺ وهي عقب الأعداء تارةً، وتارة ينبع الماء السلسبيل من بين أصابع كفها ليسقي الصحاب، وأخرى هي بلسم جراحات أصحابه في معارك الجهاد(٢).

ويرى «النورسي» أن الانتصار للحق لا محال، والعلوَ له لا جدال، وأن القوة التي يمجدها ويسبّح بحمدها الغربيون ليست مطلقة، لأن كل شئ يحمل نقيضه، فالقوة تحمل جرثومة ضعفها، وسيصيبها الضعف والوهن في زمن ما، كما أن الضعف ليس أبدياً فهو يحمل جرثومة قوته، وسيقوى ويشتد ساعده في زمن ما أيضاً، فلا ينبغي للأقوياء أن يفرحوا بقوتهم ويتطاولوا بها على الناس، ولا للضعفاء أن ييأسوا وينكفئوا ويفقدوا أملهم بأن يصبحوا من الأقوياء في دورة من دورات الزمن، والحق سيعلو وتكون له الغلبة إذا أطاع الشريعة التكوينية والتزم بقوانينها ونواميسها، لأن طاعة الشريعة التكوينية والالتزام بقوانينها ونواميسها هي سبيل الحق الى القوة التي يفتقر اليها، والتي ستعينه على العلو والغلبة في ساحة صراعه مع الباطل، فباطل مسلح بالقوة يغلب حقاً أعزل منها(٣).

والتاريخ تتجاذبه قوتان تعملان على تحريكه وهما «المطلق» من جهة و «النسبي» من جهة اخرى. ومن ورائهما القدر الإلهي الذي يحيط بالنسبي

(٢) المكتوبات ١٨٧
(٣) الكلمات ٨٧١ «الحق يعلو»

والمطلق ويرسم لهما دائرة صراعهما مع مجريات الاحداث والوقائع، وقيام الدول والحضارات أو سقوطهما، فهذا الفهم الروحي للتأريخ يعين الاديب الذكي على رصد واقعة تاريخية معينة وتحويلها الى عمل أدبي يفعل في النفوس ما لم تفعله الواقعة نفسها أو فكرتها المجردة.

غير أنه لا يلزم من كون القدر يسهم بشكل أو بآخر في صنع التأريخ الاعتقاد بجبرية تاريخية لا حرية ولا أختيار للانسان الى جانبها، فهذا فهم سطحي للقدر بجانب الحقيقة، فطالب الحقيقة ينبغي أن يصغي الى النورسي وهو يخاطبه قائلاً:

« يا طالب الحقيقة!

إن الشريعة تنظر الى الماضي والى المصيبة غير نظرتها الى المستقبل والى المعصية...

إذ تنظر الى الماضي والى المصائب بنظر القدر الإلهي، فالقول هنا قول الجبرية..

أما المستقبل والمعاصي فتنظر اليهما بنظر التكليف الالهي، فالقول هنا قول المعتزلة..

وهكذا تتصالح الجبرية والمعتزلة...

ففي هذه المذاهب الباطلة تندرج حبة من حقيقة لها محلها الخاص بها، وينشأ الباطل من تعميمها »(٤).

فلكي لا يأسى الانسان على ما فاته، ولا يتألم للمآسي التي حلّتْ به فَي ماضي حياته، يلجأ الى بلسم القدر ليغسل نفسه من همومها وآلامها،

(٤) الكلمات ٨٥٢

ولكن حين يتلبس الحاضر، ويرنو الى المستقبل عليه أن يشحذ همة التكليف وحرية الاختيار، لكي لا يبرر أخطاءه وآثامه وينسبها الى القدر ظلماً واعتسافاً، لأن المسؤولية هي إكسير حياة الانسان الذاتية، ومن دونها يفقد ذاتيته، ويفقد المعنى من وجوده.

فهذا الفهم للقدر يعين المسرحي المسلم، ويرسم له صورة الحياة المسرحية التي يمكن لشخوص مسرحه أن يتحركوا في إطارها، ويمارسوا حياتهم التي يتقاسمها الماضي بذكرياته وتأثيراته ومكوناته النفسية، والحاضر بآلامه وآماله. والمستقبل بأحلامه وبريق أيامه.. وكذلك الروائي المسلم سيفيد من هذا الفهم للقدر، لأن المسرحي والروائي، كليهما يعالجان مسألة القدر من خلال شخوصهما وابطالهما.

ثم إنّ «أدب الأيمان» الذي وضع «النورسي» أسسه وخطوطه العريضة في رسالة «اللوامع»(٥)، يهتم بالمعاني الانسانية العالية، ويرصد قمم السمو التي بإمكان الانسان الارتفاع اليها. ويغري بالبطولة النفسية التي تتعالى على صغائر النفس وشهواتها الهابطة، ويرفض ركوعها أمام سلطان الفرج والمال والقوة والجاه، ويربأ هذا الأدب بنفسه عن الهبوط الى حيث يرتع الضعف الانساني والدور البشري في أشد أوهام الحياة، وأسوأ أكاذيب الطبيعة، فلا يدنس نفسه بهما كما يفعل أدب الغرب اليوم الذي لا يتنزه عن الخوض في أي مستنقع يَغْرَقُ الانسان فيه مهما كانت درجة قذارته وعفونته.

وكذلك فأن أدب الايمان الذي يدعو اليه «النورسي» ينبغي له أن يحل عقدة الخوف والضعف المستعصية في «لا شعور» الانسان المسلم. هذه

(٥) المنشورة ملحقة بمجموعة «الكلمات».

العقدة التي كونتها في «لا شعوره» عشرات السنين من التسلط والقهر الأجنبي التي عانت منه شعوب الاسلام على طول عالمها وعرضه، فهو أدب القوة النفسية الذي يرتب التكوين النفسي للمسلم من جديد، فيغسل ضعفه وخوفه ويحذره من أن الضعف والخوف لا يثيران في نفوس الآخرين عاطفة الرحمة والاشفاق، بل يحركان فيهم عرق الكبرياء والتفوق، ويحفزان فيهم شهية الانقضاض والافتراس، فيقول في احدى فقرات تلك الرسالة:

«أيها الخائف الضعيف..!

إن خوفك وضعفك يذهبان سدىً لا طائل وراءهما، بل يكونان عليك لا لك؛ لإنهما يشجعان الآخرين، ويثيران شهيتهم لافتراسك»(٦).

انه هنا يسجل واحداً من أقسى قوانين الغاب البشري ضراوة حين تغيب عنه انسانية الايمان، وتتحكم فيه وحشية الحيوان.

ورغم ما يحيق بالمسلمين وبشعوب كثيرة أخرى من ضعف وهوان إلاَّ أنه متفائل لا يعرف اليأس، ويريد من «أدب الايمان» أن يبث الأمل في النفوس، ويشعل في الضمائر والارواح لهب القوة والعزة والتطلع الى المستقبل بروح الثقة من أنه سيكون من نصيب الاسلام..

وهو يرى أن «آسيا» هذه القارّة الواهنة الضعيفة المكبلة، ستنهض منتفضة على نداء الاسلام، وستكسر قيودها، وتحطم أغلالها ثم تستسلم ـ كما يقول – بأرضها وسمائها وناسها – للاسلام، وأن يدي الاسلام الحانيتين الكريمتين ستحتضناها، وان يمينه سيعطيها الايمان، ويمنح الطمأنينة والسلام للأنام (٧).

(٦) الكلمات ٨٣٧
(٧) الكلمات ٨٦٢

وبعد هذا الذي عرضناه يصبح من أوجب واجبات «أدب الأيمان» – الى جانب بثه روح التفاؤل والأمل في الشعوب – أن يتصدى بقوة للأخطار التي تثير القلاقل والاضطرابات، وتهدد أمن المجتمعات وسلامها، وتنذرها بالهلاك والدمار.

فما لم يُرْفَعْ عن الشعوب الظلم الاقتصادي الناجم عن انحرافاتها عن عدالة الإسلام، فلا أمل لها في عيش الطمأنينة والسلام، ويجمل «النورسي» بأسطر قليلة أصل العلة وأساسها، ويترك المجال لمن يأتي بعده لكي يفصل المجمل، ويبني عليه، ثم يشرع في التصدي والمعالجة، يقول «النورسي»:

«إن معدن جميع الاضطرابات والقلاقل والفساد وأصلها، وأن محرك جميع أنواع السيئات، والأخلاق الدنيئة ومنبعها كلمتان اثنتان او جملتان فقط:

الكلمة الأولى: إذا شبعتُ أنا فلا أبالي إن مات غيري من الجوع.

الكلمة الثانية: تحمل أنت المشاق لأجل راحتي.. اعمل أنت لآكل أنا.. لك المشقة وعليَّ الأكل.

والدواء الشافي الذي يستأصل شأفة السم القاتل في الكلمة الأولى هو الزكاة، التي هي ركن من أركان الاسلام.

والذي يجتث عرق شجرة الزقوم المندرجة في الكلمة الثانية هو: تحريم الربا.. فإن كانت البشرية تريد صلاحاً وحياةً كريمة فعليها فرض الزكاة، ورفع الربا»(٨).

(٨) الكلمات ٨٥١

ويحسن أن أنبه هنا الى أن «النورسي» لا يهتم بتجميل إطار الصورة الأدبية التي ينشؤها كاهتمامه بالصورة نفسها، فغايته الفكرة دون اللفظ، وهو لا يلقي بالاً الى ضعف العبارة وركة سبكها التي يودعها أفكاره فلا يتكلف للعبارة شيئاً من التجميل والتزويق وحسن اللفظة والكلمة لتحسن في نظر القارئ. بل هو عفوي شديد العفوية، وتلقائي لا يرى في الألفاظ اكثر من كونها مطايا الأفكار، فاذا عظمت الفكرة وجملت فلا عليها أن يحملها أي لفظ وأية كلمة ما دامت قادرة على توصيل ما تحمله الى القارئ، فهو إذن أديب أفكار وليس أديب الفاظ. وقد أشار الى ذلك في مستهل «اللوامع» ليأخذ القارئ حذره فينعم النظر بعظمة الفكرة لا بجزالة العبارة، لأن الأفكار هي قصده وغايته في هذه الرسالة وفي كل رسالة من رسائله.

كما أنه ليس شاعراً، أي لم ينظم شعراً، غير أننا نلمس حساً شاعرياً يشيع في أقواله وكلماته يفصح عن طاقة أدبية وشاعرية تنطوي عليها نفسه.

فتحتوي كل فقرة من فقرات هذه الرسالة «اللوامع» ـ مهما قلّت سطورها ـ على فكرة معينة، وكل فكرة بمفردها يمكن أن تلهم القارئ موضوعاً وجدانياً قادراً على تحريك الأفكار والمشاعر وشحنها بخزين من الطاقات الإيمانية التي تمده بلوامع النور والضياء في دياجي الفتن الظلماء إذا ما اكتنفت المؤمن وأحاطت به من كل جانب، فيمضي في طريقه على بصيرة من أمره لا ينحرف يميناً أو شمالاً عن صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم اللّه غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

وتجدر الاشارة هنا الى أنني لم استعرض الا بعضاً من مواضيع «اللوامع»، وتركت للقارئ الكريم الوقوف على بقية مواضيعها واكتشاف

ما فيها من جواهر الأدب والحكمة بنفسه، ولا سيما تلك المقارنة الغريبة التي أنشأها «النورسي» بين أدب القرآن وأدب الغرب في معرض بيانه لإعجاز القرآن، وقد اضطررت أحياناً للاستعانة ببعض مقطوعاته في رسائل اخرى كي أعطي القارئ فكرة أشمل عن أبعاد النورسي الأدبية والوانها واختلاف موضوعاتها.. والمؤمل أن يحظى القارئ من خلال سطور الرسائل بشئ جميل ومفيد من غذاء العقل والروح.. ومن الله العون والتوفيق .

* * *

زاد الغرباء

يظل القلق الحادّ يعتور «النفس الانسانية» ويؤرق وجودها بسبب ذلك الاحساس المبهم بالوحشة، والشعور الغامض بالإغتراب في هذا العالم، وهو حسٌّ عميق الغور في النفوس لا يسهل الخلاص منه، أو الأنفكاك عنه، لأنه يشكل جانباً مهماً من جوانب الوجدان البشري.

وكان أمراً بديهياً أن ينتقل هذا الاحساس المخيف والحزين الى أبنائه، ويتوارثونه جيلاً عن جيل، مشكلاً واحداً من اكثر مكونات نفوسهم عمقاً، وأشدّ جراحات أرواحهم نزفاً، حتى إن ارواحهم لتحوم هائمة وهي تنزف الألم والحزن في رحلة بحثها المضنية عن عالم أبيها المفقود، ووطنه المنشود... وقد أنهك هذ البحث نفوسهم، وأقضّ مضاجعهم، وأشحب وجودهم، وامتصّ ماء حياتهم دون جدوى، لأن الاحساس بالغربة يلازمهم ولا ينفك عنهم مهما ضج ضجيج حضاراتهم، واحتدمت آمالهم ومطامحهم، وعمرت أرضهم، وأخصبت حقولهم، وارتفعت في الفضاء مداخن معاملهم ومصانعم، وهو سكين حاد يظل يعمل في الروح تجريحاً وتقطيعاً ما دامت سارحة في التيه، راتعة في صحارى الضياع، قبل الاهتداء الى عالمها، والعودة الى منبعها.

ولأن عالم «آدم عليه السلام» الأول، هو الوجود الحق الذي لا يعتوره الفناء والعدم، ولا يقبل إلاّ خالص الوجود، ومحض الوجوب... ولأن المعصية بسلبيتها وعدميتها هي الأبنة الشرعية للعدم الأكبر، صار لزاماً أن

يغادر «آدم» ـ وقد عصى ـ عالمَ البقاء والخلود، ويهبط الى دنيا الزوال والفناء والعدم، لأن شبيه الشئ منجذب اليه كما هو معلوم... وهذا العالم يناصب الانسان العداء، ويغريه بعد حياته، ويزينها له، حتى إذا ما ابحر اليها أطبقت عليه بفكاكها القوية الحادّة، وأمسكت بخناقه، فلا تتركه إلاّ جثة عدميةً هامدةً، لا يقبلها الوجود، ويرفضها البقاء. ولكي يستطيع «آدم عليه السلام» وأبناؤه من بعده، الخلاص من مخاطر هذ الوطن العدمي المخيف، كان لزاماً عليه وعلى أبنائه التشبث بحبال الانقاذ الممدودة اليهم من عالم الوجود الحق، والتمسك بها بقوة وحزم، والصراخ في وجه كل ظلمات دنيا العدم «حسبنا اللهونعم الوكيل» ، أي:

حسبنا واجب الوجود من عدميات الممكنات...

حسبنا الواحد الأحد من شتات الكثرة...

حسبنا مسبّب الأسباب إذا ما استنزفتنا الأسباب...

حسبنا الله سنداً ومعيناً إذا ما تهاوى الاسناد وعزّ الصاحب والمعين...

حسبنا الله ناصراً ومؤيداً إذا ما تخلى عنّا النصراء والمؤيدون...

حسبنا الله أنيساً في وحشتنا، وصاحباً في غربتنا...

وبعد: حسبنا الله الموجود الموجِد خالق الموت والحياة، إذا ما جاءنا الموت وتهددنا العدم...

فالتشبث بالباقي الأزلي الأبدي... بقاء

والتعلق بالوجود الحق... وجود.

والارتباط بالحي الذي لا يموت... حياة.

* * *

والشعور بالأغتراب الفكري والروحي، وحتى الحسيّ، رغم ما يخلفه من آلام وأحزان، الا أنه يشكل عامل تحريك لقوى النفس، وتنشيط خلايا الفكر والروح.

فالأبداعات الفكرية والوجدانية ـ في الأعم الأغلب ـ مدينة الى هذا الشعور بالاغتراب عند المبدعين، وإحساسهم بأنهم غرباء في أوطانهم وأزمانهم بغربة ما يملكون من فكر أو وجدان لم تتهيأ الأوطان والازمان بعد لقبوله، والتواصل معه، إلا أنهم يمضون في أداء رسالتهم على أمل أن يأتي ذلك الزمان الذي يفهم ويقدّر، وصدق رسول الله ﷺ حين قال (بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء)، أي ان زماناً سيأتي يغترب فيه حملة الاسلام، وينكرهم عصرهم، وينكرهم قومهم، لأن الاسلام نفسه يعود غريباً لا يرحب به بينهم.

فهذه الرسالة – الشعاع الرابع – «زاد الغرباء»، تحمل العزاء العظيم للمسلمين المغتربين في هذا العصر، وتزجي الأنس للمستوحشين المنعزلين في جزر غربتهم، وتشيع الأمن والاطمئنان في نفوس الخائفين المرعوبين من وحش الفناء والعدم.

و« النورسي» رحمه الله، هذا الانسان الغريب في قومه ووطنه يُملي هذه الرسالة، ويشرح فيها تجربته الذاتية، وخبرته ومعاناته من أنواع كثيرة من الغربة والاغتراب، ويصف فيها الدواء لنفسه، والضماد لجراحات غربته، وهذا الدواء والضماد في هذه الرسالة في متناول كل مغترب من المسلمين يعاني من عذابات غربته، وآلام وحشته، وقلق خوفه ورعبه.

رحم الله «النورسي» عاش غريباً، ومات غريباً، وأخصبت غربته هذه الآثار الفكرية والوجدانية التي يتتلمذ عليها اليوم الآلاف من غرباء هذ العصر من المسلمين...

ابعاد جديدة
في تأويل احاديث متشابهة

يرى «النورسي» رحمه الله تعالى؛ ان الحديث الشريف ليس سواء من حيث فهمنا وادراكنا لمراميه وأبعاد مقاصده، فمنه «المحكم» الذي قلما يُختلَف في فهم غرضه ومعناه، ومنه «المتشابه» الذي تتعدد وجهات النظر فيه، وتختلف العقول في ادراك أغراضه ومقاصده، وتتباين الأذهان في تأويله والاستنباط منه.

وكما أنه لا يجوز الوقوف عند حرفية «الآي المتشابهة» من القرآن الكريم، والتعامل مع ظاهر معناه من دون الأخذ بنظر الاعتبار دلالاته البلاغية من استعارة وكناية ومجاز، الى غير ذلك من أصول «العربية» وأساليب بيانها، كذلك لا يجوز الوقوف عند ظاهر «الحديث المتشابه» والتعامل مع استعاراته ومجازاته وكأنها حقائق مقصودة لذاتها والنظر الى «المثال» و «الرمز» الذي يتضمنه الحديث وكأنه هو غاية الحديث وهدفه.

ان النظر الى «الحديث المتشابه» هذه النظرة الضيقة، والوقوف عند معناه الظاهري الحرفي، أوقع عامة المسلمين في خطأ فادح، جرّهم الى تصورات خيالية لبعض هذه الأحاديث قد تبدو أحياناً وكأنها مجانبة للعقل والمنطق.

فعبقرية التجسيم والتصوير والتشخيص للمعاني، هي بعض خصائص اللغة العربية، فمهما أغرقت في حسيتها، واستعارت من هذه الحسيات،

ومهما أوغلت في مجازاتها، فلا ينبغي ان ننسى أنها مجرد وسيلة يستخدمها «الحديث» لتجسيم المعاني وتقريبها لأحاسيسنا وأفكارنا، بينما الوقوف عند صورة الحديث ومجسماته دون التوغل الى روحه ومعناه ـ عبر مجازاته واستعاراته ـ قصور معيب انعكس بسلبياته ـ وما زال ينعكس ـ على فهوم عامة المسلمين للأحاديث الشريفة المتشابهة، ولاسيما تلك الأحاديث المروية في «الدجال» وحاله ووصفه وزمانه وفعاله.

وقد خلص «النورسي» من دراسته لجمل الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ في «الدجال»، الى ان «الدجال» ليس واحداً، وان هناك «دجالين» صغاراً يأتون تباعاً الواحد تلو الآخر قبل ان يحل زمان «الدجال الأكبر».

وهو يرى ـ اي النورسي ـ ان لكل عصر دجاله الذي يرتدي ثوب عصره، ويتسربل بسربال زمانه، ويتلون بلون وقته.

و «الدجال» انسان متميز بقدرات وطاقات تهيئ له فرصة التسلط على الغالبية العظمى من الناس، وهو قادر على اخفاء وجهة القبيح، ونواياه الشريرة وكفره وجحوده، تحت أغطية متعددة من الدعوة الى الحق والخير والعدل.

وهو كذلك يتفنن في استخدام وسائل الدعوة المتاحة الى نفسه حتى يستهوي جموعاً عظيمة من الناس، تؤمن به، وتتبعه وتتسابق الى تنفيذ أوامره، وتحقيق رغباته، وهو لا ينفك يستعرض أمام هذه الجموع المفتونة أفانين من قدراته التي تبدو لبسطاء الناس وكأنها خوارق تعزز صدقه، وتدعم دعواه.

ثم يمضي «الدجال» في الاستيلاء والتسلط خطوة بعد خطوة، ويتسع نفوذه، وتمتد هيمنته، ويبدأ «الأنا» في نفسه يتضخم ويكبر ويتورم، فيحفز عرق الربوبية الموهومة في نفسه، والألوهية المتخيلة فاذا به يصرخ ـ بكل اللغات وبكل الوسائل ـ من لاعج هذا الوهم القاتل بلسان الحال أو المقال كما صرح فرعون: (أنا ربكم الأعلى)، فيرى من حقه، وقد بلغ به توهم الربوبية هذا المبلغ المخيف، استعباد الناس وتسخيرهم لشهواته ومآربه.

وتاريخ الانسانية ملئ بنماذج من هؤلاء الدجالين على اختلاف الأزمان والأوطان.

و «النورسي» يعتمد على أثر مهم في التفريق بين «دجال المسلمين» الذي يسميه «الأثر» بـ «السفياني» وبين «دجال البشرية قاطبة». ويرى ان مهمة هذا الدجال، هي نشر الفساد والاباحية، وتحطيم الخلق والفضيلة، ومسخ الانسانية والعدالة، وتزيين الظلم والطغيان، الى آخر ما هناك من عوامل هدم الحضارات وتدمير الانسانيات.

واما «السفياني» دجال المسلمين، فان مهمته هي قيادة المسلمين تدريجياً نحو البعد عن الاسلام، والتنكر لعقيدته وشريعته، ثم حمل المسلمين على الافتتان بشخصه الى حد الرضى به مشرعاً يشرع لهم من الشرائع ما تهوى نفسه، ويرضاه عقله، فينصب من نفسه نداً للألوهية والربوبية صاحبة الحكم والتشريع الحقيقيين.

و «النورسي» بعد ذلك، يستعرض في رسالة ـ الشعاع الخامس ـ «اشراط الساعة» جملة من المسائل الواردة في «الدجال» وفي «المهدي» وفي «يأجوج ومأجوج» و «دابة الأرض» وغيرها من غيبيات الحديث

ومتشابهه، ويحاول ـ ضمن منهجه في اسلوب فهم الحديث المتشابه ـ تأويل هذه الآثار وتفسيرها دون تعسف أو تمحل، ودون أن يحمل الأثر من المعاني ما لا يحتمله، أو ما هو يبعد عن المضمون الذي يتضمنه الحديث. بل هو، يقبله ويتسع له، ولا يوجد ما يمنع قبوله والاتساع له شرعاً.

ولا يخفى ان «الحديث المتشابه» ـ اذا صح ـ شأنه شأن «الآي المتشابهة»، به يختبر ايمان المؤمنين، وصدق المصدقين، وبه يكتشف الماس الايمان النفيس من فحم الشك والتردد الخسيس، كما يشير الى ذلك «النورسي» في ثنايا الرسالة.

* * *

فهرس

الرحلة والصحبة ٣
مدخل إلى عالم النورسي الفكري ٧
الفكر والمنهج عند النورسي ٣١
نظرية المعرفة عند النورسي ٣٩
الإيمان والتجديد ٦٧
على مشارف النفس ٧٩
الحس الأخروي وفكر النورسي ٩٥
مناحي الفكر الإيماني عند النورسي ١٠٩
فاعلية الأسماء الحسنى ١٢٣
بين يدي المعجزات الأحمدية ١٣٥
أستاذية الرسائل ١٤٥
أدب الإيمان ١٤٩
زاد الغرباء ١٥٩
أبعاد جديدة في تأويل أحاديث متشابهة ١٦٣

رقم الإيداع ١٥٥٧/ ١٩٩٧
ISBN
977-294-011-6